
روايات مصرية للجيب
رجل المستحيل
محيط الدم
130
رياحين
www.liilas.com/vb3
د. نبيل فاروق
المؤسسة العربية الحديثة

محيط الدم

• من هو مستر (X)، زعيم تلك المنظمة الإجرامية، التي تسعى للسيطرة على العالم؟!

• ما مصير (أدهم صبري)؟ وهل يمكن أن ينتصر على تكنولوجيا الجاسوسية والإجرام؟!

• ترى من سيحسم الصراع هذه المرة؟ ومن سينتصر في (محيط الدم)؟!

• اقرأ التفاصيل المثيرة، وقاتل بعقلك وكيانك مع الرجل.. (رجل المستحيل).



رجل المستحيل
سلسلة روايات بوليسية للشباب زاخرة بالأحداث المثيرة

130



رجل المستحيل

(أدهم صبري).. ضابط مخابرات مصري، يرمز إليه بالرمز (ن-١).. حرف (النون)، يعني أنه فئة نادرة، أما الرقم (واحد) فيعني أنه الأول من نوعه؛ هذا لأن (أدهم صبري) رجل من نوع خاص.. فهو يجيد استخدام جميع أنواع الأسلحة، من المسدس إلى قاذفة القنابل.. وكل فنون القتال، من المصارعة وحتى التايكوندو.. هذا بالإضافة إلى إجادته التامة لست لغات حية، وبراعته الفائقة في استخدام أدوات التنكر و(المكياج)، وقيادة السيارات والطائرات، وحتى الغواصات، إلى جانب مهارات أخرى متعددة.

لقد أجمع الكل على أنه من المستحيل أن يجيد رجل واحد في سن (أدهم صبري) كل هذه المهارات.. ولكن (أدهم صبري) حقق هذا المستحيل، واستحق عن جدارة تلك اللقب الذي أطلقته عليه إدارة المخابرات العامة لقب (رجل المستحيل).

د. نبيل فاروق

١ - عين الخطر..

ارتفعت درجة التوتر إلى حدها الأقصى، في مبنى المخابرات العامة المصرية، وبدا من الواضح، في إدارة الأمن القومي، أن الأمور قد بلغت حدًّا غير تقليدي.

ففي واحدة من المبادرات النادرة، وصل رئيس الجمهورية بنفسه إلى مبنى الأمن القومي، داخل المخابرات العامة، للاجتماع بمدير الجهاز وكبار معاونيه، ووزير الدفاع، ومدير المخابرات الحربية، الذين التفوا جميعًا حول مائدة الاجتماعات الكبرى، والرئيس يقول في حزم، حمل بعض نبرات التوتر، التي لا تتفق مع طبيعته الهادئة الرصينة:

- الموقف صار أخطر مما كنا نتصور بكثير أيها السادة، فتلك المنظمة، التي أطلقت على نفسها اسم (إكس)، قد تجاوزت كل الحدود المعروفة أو المقبولة هذه المرة، بحيث لم تعد خطرًا يهدد

الولايات المتحدة الأمريكية وحدها ، وإنما العالم أجمع بلا استثناء ، وهذا يضعنا أيضًا في دائرة الخطر ، وربما في مركزها تمامًا ، بعد الضربة الأخيرة للمنظمة .

هزّ مدير المخابرات العامة رأسه ، قائلاً :

ـ كانت ضربة تفوق كل التوقعات بالفعل .

مال وزير الدفاع إلى الأمام ، متسائلاً في قلق :

ـ وما تلك الضربة بالضبط ؟! ماذا كان هدفها ؟!

أدار رئيس الجمهورية عينيه إليه ، مجيبًا في حزم :

ـ لقد استولت منظمة (إكس) على قمر صناعي أمريكي .

اتسعت عينا وزير الدفاع في ذهول ، في حين هتف مدير المخابرات الحربية ، في دهشة فاقت كل الحدود :

ـ ولكن هذا مستحيل ! كيف يمكن لمنظمة عادية أن تستولي على هدف فضائي ، دون أن تمتلك القدرة على القيام برحلات فضائية ، تتكلف مليارات الدولارات في المعتاد ؟!

أجابه رئيس الجمهورية :

ـ الاستيلاء هنا لم يتم بصورة مادية مباشرة ، ولكن عن طريق السيطرة على أجهزة توجيه القمر الصناعي إليكترونيًا .

هزّ مدير المخابرات الحربية رأسه ، قائلاً :

ـ حتى هذا لا يبدو لي بالأمر السهل ، فهناك وكالة كاملة ، في النظام الأمريكي ، وهي الخاصة بالفضاء والطيران (ناسا)(*) ، تتولى مهمة متابعة وتنظيم مسارات وأعمال الأقمار الصناعية ، تحت إشراف وزارة الدفاع الأمريكية ، فيما يختص بالأقمار الخاصة بالتجسس .

أشار الرئيس إلى مدير المخابرات العامة ، الذي اعتدل ، مجيبًا :

ـ من الواضح أن منظمة (إكس) قد بدأت مرحلة التكوين ، منذ فترة طويلة ، أعدت خلالها كوادرها ، في مختلف الأماكن والمناطق شديدة الأهمية والخطورة

(*) ناسا : اختصار لعبارة (وكالة الفضاء والطيران القومية) .

والحساسية ، وأنها لم تبدأ ضربتها ، أو تعلن عن وجودها ، إلا بعد أن استقر بها المقام ، وتأكدت من إحكام سيطرتها على كل ما يمكن أن يمنحها أسباب القوة والسيطرة ، ومن ضمن ما أعلنته ، أنها قد استخدمت أحد جواسيسها ، في وكالة الفضاء والطيران الأمريكية ، لاستبدال أسطوانات برنامج ذلك القمر الصناعي منذ البداية ، وقبل إطلاقه في مساره ، بحيث يمكنها ، في الوقت الذي تختاره وتحدده ، أن تلغي كل أنواع السيطرة الإليكترونية على القمر ، وتضمه إلى سيطرتها هي ، عبر محطة تحكم أرضية مجهولة ، بحيث يصبح ذلك القمر الصناعي تابعًا بالكامل لها ، وخادمًا مطيعًا لأهدافها .

سأل وزير الدفاع في اهتمام :

ـ وما قدرات ذلك القمر الصناعي بالضبط ؟! المراقبة والتجسس ، أم ....

لم يتم عبارته ، ولكن الجميع فهموا ما يعنيه ويشير إليه ، فأجابه الرئيس في حزم :

ـ ذلك القمر الصناعي ضمن برنامج حرب النجوم(*) .

قال أحد مساعدي الوزير في دهشة :

ـ عجبًا ! ألم يتم إيقاف هذا البرنامج ؟!

أجابه رئيس الجمهورية :

ـ من الناحية الرسمية فحسب ، ولكن بعض أقماره الصناعية ما زالت تدور حول الأرض بالفعل ، ومنها ذلك القمر ، والذي استولت عليه منظمة (إكس) .

قال وزير الدفاع في صرامة :

ـ هذا يعني أنها صارت قادرة على ضرب أي هدف في العالم ، بحزمة ليزر قوية ، كما كنا نرى في أفلام الخيال العلمي القديمة .

(*) برنامج حرب النجوم : برنامج دفاعي ، بلغ ذروته في عصر الرئيس (ريجان) ، وهو يعتمد على استخدام سلسلة من الأقمار الصناعية ، المجهزة لإطلاق مدافع الليزر ، نحو أهداف أرضية ، وقد تم إعلان إيقاف البرنامج ، في عهد الرئيس (كلينتون) ؛ خفضًا للميزانية العسكرية .

أجابه الرئيس :

- بالضبط .. يبدو أن الفاصل بين الواقع والخيال لم يعد كبيراً ، كما كنا نتصور .

غمغم مدير المخابرات العامة :

- إننا على مشارف القرن الحادى والعشرين بالفعل(*) .

قال وزير الدفاع فى صرامة ، لا تخلو من لمحة عصبية :

- المهم الآن هو ما الذى يمكننا أن نفعله ، فى مواجهة هذه الكارثة ؟؟

أجابه رئيس الجمهورية فى حزم :

(*) من الأخطاء الشائعة ، أن يتصور البعض أن عام ألفين هو بداية القرن الحادى والعشرين .. ولكن الواقع أنه نهاية القرن العشرين (من الناحيتين .. الواقعية والحسابية) .. أما القرن الحادى والعشرون ، فيبدأ مع أول ساعات الأول من يناير ، عام ألفين وواحد .

- هذا ما جمعتكم من أجله .. دعونا نفترض أن (مصر) هى أحد الأهداف المحتملة ، للقصر الصناعى المسلوب ، وهذا يستدعى أن يتم رفع درجة الطوارئ إلى حدها الأقصى ، فى كل المنشآت والأهداف العسكرية والمدنية ، وأن يتم إجراء بحث عام وشامل ، عن كل من يحتمل عمله لحساب تلك المنظمة ، فى كل فرع الجيش .. وأن يستعد الجميع لمواجهة أية كارثة عسكرية محتملة .. وهذه مهمتك يا وزير الدفاع ، ومهمتك يا مدير المخابرات الحربية .

مال مدير المخابرات العامة إلى الأمام ، متسائلاً :

- وماذا عنا ؟؟

أجابه فى حزم :

- عليكم القيام بالعمل كله .. البحث عن كل ما يتعلق بتلك المنظمة ، واتصالاتها ، وصلاتها ، وأهدافها المحتملة .. وإطلاق رجالكم فى كل بقعة من العالم ، لجمع المعلومات ، وتصنيفها ، وتحديد وكر منظمة (إكس) ، أو احتمالات وجوده على الأقل .

ثم انعقد حاجباه ، وهو يسأله :

ـ ثم ماذا عن رجلكم المستحيل هـذا ؟! أما من أخبار عنه ؟!

صمت مدير المخابرات العامة بضع لحظات ، قبل أن يجيب فى ضيق :

ـ كل الظواهر والدلائل تشير إلى أن تلك المنظمة قد أوقعت به يا سيادة الرئيس .

تراجع الرئيس ، هاتفًا فى انزعاج :

ـ هل قتلوه ؟!

هزّ مدير المخابرات العامة رأسه نفيًا ، وقال :

ـ بل أسروه يا سيادة الرئيس .

انعقد حاجبا رئيس الجمهورية بشدة ، وهو يهتف :

ـ أسروه ؟!

واستمر انعقـاد حاجبيه لدقيقـة كاملة ، استغرق خلالها فى تفكير عميق ، قبل أن يقول :

ـ عظيم .. هذه نقطة إيجابية .

تفجّرت الدهشة فى وجـوه الجميع ، وهم يحدقون فى الرئيس ، الذى تابع فى هدوء ، تحمل نبراتـه الكثير من الثقة :

ـ ما داموا قد أسروه ، ولم يقتلوه مباشرة ، فهذا يعنى أنهم يريدونه حيًا لسبب ما ، وسيحتفظون به حتمًا فى أحد مواقعهم .

ثم ابتسم ، مكملاً :

ـ ويعنى أيضًا أن أفضل رجالنا ، صار داخل كيانهم بالفعل .

سأله وزير الدفاع فى حذر :

ـ وهل تعتقد أن رجلاً واحدًا ، يمكنه أن يصنع فارقًا ، وهو أسير فى يد منظمة خطيرة قوية كهذه ، يا سيادة الرئيس ؟!

أجابه الرئيس فى سرعة :

ـ بالنسبة لرجل مثله ، فالجواب هو ..

وصمت لحظة ، أدار عينيه خلالها فى وجوههم جميعًا ، قبل أن يضيف فى حزم شديد :

- نعم .

بدا ارتياح واضح على وجه مدير المخابرات العامة ، واسترخى جسمه فى آلية على مقعده ، فى حين تابع الرئيس :

- والآن ، دعونا نراجع معًا كل الإجراءات ، التى ينبغى اتباعها ، لحماية وتأمين المنشآت العسكرية والمدنية ، و ...

تابعه مدير المخابرات العامة ، وذهنه ينطلق بعيدًا ..

إلى البداية ..

والبداية كانت كالنهاية ، تتعلق أيضًا بقمر صناعى ..

القمر الصناعى المصرى (نايل سات) ..

ففى أثناء وجوده فى (إسرائيل) ، للبحث عن ابنته ، كشف (أدهم) أن الإسرائيليين لديهم خطة رهيبة ، لنسف وتدمير القمر الصناعى العربى (نايل سات) ..

وبقرار حاسم خطير ، يحتاج إلى رجل مثله ، قرر (أدهم) التخلى عن كل شىء ، والانطلاق فورًا إلى (كوماتا) فى (فنزويلا) ، لإنقاذ القمر الصناعى المصرى ، من الخطة الإسرائيلية القذرة ، التى تحاول منعنا من اللحاق بركب التكنولوجيا والحضارة ، ونحن نقترب بسرعة من القرن الحادى والعشرين ..

وفى (كوماتا) ، كان القتال عنيفًا ..

ولكن (أدهم) انتصر ..

وفشلت خطة تدمير قمر (مصر)(*).

وبعدها اختفى (أدهم) تمامًا ..

اختفى بكل إصاباته وآلامه ..

بكل ما فقده من حيوية ونماء ..

فى أدغال (كوماتا) ..

وانطلقت المخابرات تبحث عن أخطر رجل مخابرات فى العالم ..

(*) راجع قصة (عملية النيل) ... المغامرة رقم (١٢٥) .

ليست المخابرات المصرية وحدها ..

ولكن كل أجهزة المخابرات ..

الكل كان يسعى للعثور عليه ..

وكل بهدف يختلف عن الآخر ..

ربما لأنه ، بالنسبة للكل ، أسطورة فى عالم المخابرات ..

ورمز ينبغى حمايته ..

أو القضاء عليه ..

أو ربما لأن اختفاءه قد تواكب مع مولد منظمة جاسوسية جديدة ، فى ذلك العالم الغامض المثير ..

منظمة (إكس) ..

نفس المنظمة ، التى سيطرت على (أدهم) ، ونقلته إلى مقرٍّ سرىٍّ مجهَّز ، فى قلب أدغال (كومانا) ، تحت حراسة سفاح الحرب السابق ، الجنرال (جيم بولارد) ..

ولأن (أدهم) ليس بالرجل الذى يستسلم للأسر ..

مهما كانت الأسباب ..

ولأن المقاومة بالنسبة إليه ، عملية حتمية ، فقد قاتل (أدهم) ..

قاتل وقاوم بكل قوته ..

وخبرته ..

وذكائه ..

وإرادته ..

قاتل وقاوم ، للعثور على نقطة ضعف جوهرية ، فى نظام الأمن الإليكترونى المعقد ، داخل وكر منظمة (إكس) ..

وفى الوقت الذى راحت فيه المنظمة تضرب ضرباتها ، واحدة بعد الأخرى ، فتستولى على غواصة نووية روسية تارة ، وأحدث مقاتلة نفاثة أمريكية تارة أخرى ، كان (أدهم) يواجه الجنرال (بولارد) ورجاله ، فى أعماق أدغال (كومانا) ، فى حين تسعى (منى) و (نادية) و (جيهان) ،

بمساعدة (بترو) . مساعد (أدهم) الزنجي[*] ، ورجلي المخابرات المصريين (خالد) و(إبراهيم) ، للعثور عليه وإنقاذه ..

في الوقت المناسب ..

ولكن فجأة ، ظهر شخص آخر في الصورة ..

(بارون حاييم دزرائيلي) ، شقيق (موشي) ، رجل (الموساد) الفذ ، الذي لقي مصرعه ، في قتال عنيف مع (حسام) قديمًا[**] ..

وكان ظهوره عنيفًا ..

بل أعنف مما ينبغي ، حتى إنه تسبب في إصابة (نادية) و(جيهان) ، و(بترو) ..

وبقيت (منى) وحدها مع (إبراهيم) ، يسعيان خلف (أدهم) ..

في أدغال (كومانا) ..

(*) راجع قصة (بلا رحمة) .. المغامرة رقم (١٠٥)

(**) راجع قصة (الضربة القاصمة) .. المغامرة رقم (١٠٠)

وكالمعتاد ، قاتل (أدهم) ..

وقاتل ..

وقاتل ...

ولكنه ، كأي بشري ، لم يحتمل القتال إلى الأبد ..

وسقط الرجل ..

رجل المستحيل ..

وفي نفس اللحظة ، التي سقطت فيها هليوكوبتر (منى) ، في قلب الأدغال ، كانت هليوكوبتر أخرى تحمل (أدهم) الفاقد الوعي ، تحت حراسة (بارون دزرائيلي) بعيدًا ..

بعيدًا جدًا ..

إلى الوكر السري الرئيسي لمنظمة (إكس) ..

في قلب ثلوج (الاسكا) ..

وجن جنون (منى) ، وانطلقت تبحث ، بمعاونة دونا (كارولينا) ، زعيمة منظمة (المافيا) القاتلة ، عن أي طرف خيط ، يمكن أن يقودها إليه ..

إلى (أدهم) ..

(أدهم) الذى استيقظ من غيبوبته ، ليجد نفسه داخل وكر المنظمة ، وأمامه عدوته اللدود (سونيا جراهام) ، وحول عنقه طوق إليكترونى أمنى خاص ، مهمته أن يعتصر عنقه بلا رحمة ، عند أى محاولة للفرار ..

وبينما واصلت المنظمة ضرباتها ، واستولت على ناقلة بترول مصرية بطاقمها ، وبدأت مشروع الاستيلاء على القمر الصناعى التابع لبرنامج (حرب النجوم) ، كان (أدهم) يتحدى ذلك الطوق الأمنى ، الذى انطلق يعتصر قبضته بالفعل ..

بلا رحمة ..

أو هوادة ..

حتى الموت(*) ..

* * *

(*) لمزيد من التفاصيل ، راجع الأجزاء الثلاثة الأولى .. (نقطة الضعف) .. و (الصحوة) .. و (الفراسة) .. المغامرات أرقام (١٢٧) ، (١٢٨) ، (١٢٩) .

سرت موجة عنيفة من التوتر ، فى كيان (سونيا جراهام) ، عندما اختفى (أدهم) من شاشتها ، وسقط داخل حجرته ، الخالية من وسائل المراقبة ، ووجدت نفسها تغمغم ، فى عصبية زائدة :

ـ يا للعناد ! ما الذى دفعه إلى التمادى إلى هذا الحد ؟!

غمغم المراقب إلى جوارها :

ـ ربما سئم حياته ، وقررَ الانتحار ، بدلاً من البقاء داخل ذلك السجن الإليكترونى المحدود .

هزت رأسها فى قوة ، قائلة :

ـ مستحيل !! ليس (أدهم صبرى) .

وترددت لحظة ، قبل أن تضيف فى عصبية :

ـ ولكنه تجاوز الحدود بالفعل هذه المرة .

قالتها ، واندفعت نحو الباب ، هاتفة عبر جهاز اتصال لاسلكى محدود :

ـ فرقة طوارئ بأقصى سرعة ، إلى الغرفة (X) .. هيا .

كانت تعدو بأقصى سرعتها وقوتها ، عبر ممرات المقر السرى ، فى قلب (ألاسكا) ، وقلبها يخفق بمنتهى القوة والعنف ..

لا ..

ليس (أدهم صبرى) من يفعل بنفسه هذا ..

ليس مثله من يلجأ إلى الانتحار ..

مهما كانت الأسباب ..

أو النتائج ..

الانتحار نوع من اليأس والهزيمة ..

وانهيار فى إيمان الإنسان وأمله ..

و (أدهم) ليس بالرجل ، الذى يمكن أن يصاب بكل هذا ..

أو حتى بجزء منه ..

هذا لأنه رجل قوى ..

بل أقوى رجل عرفته ، فى حياتها الحافلة كلها ..

وربما كان هذا سر خفقات قلبها العنيفة ..

وسر ذعرها ، من مجرد فكرة موته ..

ومن المؤكد أن هذا يقلقها ..

ويخيفها ..

ويدهشها ..

بمنتهى الشدة ..

فذلك الذى جعلها تعدو بأقصى سرعتها ، فى محاولة لإنقاذه ، هو نفسه الذى تسعى لقتله وسحقه وتدميره ، كلما اعترض مسار حياتها ..

وهو نفسه الذى كانت تبذل حياتها يوما ، فى سبيل إنقاذ حياته(*) ..

هو الذى تمنت موته ..

وحلمت بحبه ..

(*) راجع قصة (جزيرة الجحيم) .. المغامرة رقم (٨٤).

هو الذى كرهته بكل جوارحها ..

وأحبته بكل ذرة فى كيانها ..

إنه الشخص الوحيد ، الذى تناقضت مشاعرها تجاهه ، حتى بلغت هى نفسها تجهل ما الذى تريده منه !!

قتله ؟!

أم موته ؟!

حتى هى ، بعقلها المنظم ، وإرادتها القوية ، وشخصيتها التى هزمت أقوى الرجال ، تعجز عن حسم هذا الأمر فى أعماقها ..

تعجز تمامًا ..

مع ذلك القدر من أفكارها ، بلغت المنطقة ، التى تم سجنه فيها ، ورأت فريق الطوارئ يسبقها إليها ، فهتفت فى صرامة :

- احترسوا .. قد تكون خدعة .

تردَّد فريق الطوارئ عند الباب ، والتفت إليها قائده فى توتر ، فصاحت به فى حدة :

- أسرع بالله عليك .. أسرع .

أحنقها تناقضها هذا ، ولكنها لم تتوقف لتنتقد نفسها ، وإنما واصلت طريقها بقفزتين واسعتين ، ورأت أحد رجال فريق الطوارئ ينحنى ، ليفحص نبض معصم (أدهم) ، الذى سقط أرضًا بوجه محتقن ، وجسد ساكن ، وهو يهتف عبر جهاز اتصال محدود :

- أوقف عمل طوق الضغط ، مع أول إشارة .

هتفت (سونيا) فى عصبية :

- كلا .. لا توقفه ..

ثم استطردت فى عصبية أكثر :

- ما لم يكن قد ..

قاطعها الرجل :

- إنه ما زال على قيد الحياة .

هتفت :

- حقًا ؟!

لم تدر ما إذا كان هتافها قد حمل نبرة لهفة ، أم سخط أم غضب ..

لقد انطلق بأسرع من قدرة عقلها على استيعابه ..

لذا ، فقد تمالكت نفسها في سرعة ، وأشعلت واحدة من سجائرها الطويلة الرفيعة ، ونفثت دخانها في سماء الحجرة ، قبل أن تضيف في عصبية محنقة :

ـ هل فقد وعيه إذن ؟!

أجابها في توتر :

ـ ربما .

صاحت به في حدة :

ـ ماذا تقصد بكلمة (ربما) هذه ؟!

أجاب بنفس التوتر :

ـ نبضه أسرع من المعتاد ، بسبب الجهد الذي بذله ، في تحطيم أثاث حجرته ، والمفترض ، في حالة الغيبوبة ، أن ينخفض نبضه إلى حد ما .

انعقد حاجباها في شدة ، وهي تدير عينيها إلى (أدهم) ، قائلة :

ـ (أدهم) .. أنت واع ؟!

كان احتقان وجهه يقل تدريجياً ، وهو يتمتم :

ـ بالتأكيد .

مرة أخرى لم تدر ما إذا كانت تلك الزفرة ، التي انطلقت من بين شفتيها ، تحمل الارتياح ، أم السخط والحنق ..

كل ما أدركته هو أنها قد نفثت معها دخان سيجارتها في عصبية شديدة ، وهي تقول لقائد فريق الطوارئ :

ـ غادروا الحجرة .

قال الرجل في دهشة :

ـ الآن .

فصاحت به في حدة :

ـ نعم .. الآن .

نهض الرجل ، وأشار إلى فريقه ، فانصرفوا جميعاً ، وهو يتمتم :

- كما تأمرين يا سيدتي .. مادمت ستتحملين المسئولية كلها .

تراجعت مبتعدة عن إطار الباب ، وهي تغمغم في عصبية :

- بالتأكيد .

نهض (أدهم) في هدوء ، وهم يغادرون الحجرة ، وتحسس عنقه ، وهو يقول في سخرية :

- هذا الطوق السخيف قوي بالفعل .

رمقته بنظرة باردة طويلة ، أرادت أن تخفي بها عصبيتها ، قبل أن تسأله ، وهي تنفث دخان سيجارتها :

- لماذا حطمت أثاث الحجرة ؟!

أجاب ساخرًا :

- لم يرق لي طرازه .

انعقد حاجباها في غضب ، ورمقته بنظرة طويلة أخرى ، قبل أن تقول في صرامة غاضبة محنقة :

- اسمع يا (أدهم) .. لو أنه هناك مخلوق واحد ، في العالم أجمع يمكنه أن يفهمك ، بأكثر مما تفهم نفسك ، فهذا المخلوق هو بلاشك أنا .. أنا (سونيا جراهام) .. عدوتك اللدود لسنوات وسنوات ، وزوجتك السابقة الوحيدة ، وأم الطفل الأوحد ، في العالم أجمع ، الذي يحمل اسمك(*) .. وخبرتي الطويلة معك تجعلني أدرك أنك لا تقوم بأي عمل أحمق .. مهما بدا كذلك .. لقد حطمت أثاث الحجرة لهدف ما .. هدف لن تفصح عنه قط بالتأكيد ، ولكنني سأدركه حتمًا .. فهمي الجيد لشخصيتك وأسلوبك ، سيجعلني أدركه حتمًا .

هز كتفيه في لا مبالاة ، قائلاً :

- ليس لدي أدنى شك في هذا .

ثم مال إلى الأمام ، مستطردًا بأقصى قدر من السخرية :

- السؤال هو : هل سيمكنك هذا ، في الوقت المناسب ؟!

(*) راجع قصة (جزيرة الجحيم) .. المغامرة رقم (٨٤)

ازداد انعقاد حاجبيها ، وهى تقول فى صرامة :

- اسمع يا (أدهم) .. هذه المرة لا توجد وسيلة واحدة للفرار .. الطوق الذى يحيط بعنقك لا ينهزم قط .. محاولة الخروج من نطاق السيطرة ، أو أية محاولة لنزعه بالقوة ، سيكون من شأنها أن تشعل جهاز تفجير ضئيل داخله ، سيقوم بنسفه بلا رحمة ، وذلك بعد أن يعتصر عنقك إلى حد قاتل .

ورفعت يدها تشير إلى ركن الحجرة ، مضيفة :

- ومن الآن فصاعدًا ، ستضاف كاميرا مراقبة إضافية هنا .. عين جديدة ، ترصد كل حركاتك وسكناتك .

- ثم انعقد ساعداها أمام صدرها ، بكل صرامة الدنيا ، وهى تقول :

- باختصار .. لا توجد نقطة ضعف واحدة ، يمكنك أن تنفذ من خلالها هذه المرة .

هزّ رأسه ، قائلاً فى هدوء مستفز :

- خطأ يا عزيزتى (سونيا) .. خطأ .. هل نسيت كل ما تعلمناه ، فى عالم المخابرات ؟



ازداد انعقاد حاجبيها ، وهى تقول فى صرامة :
- اسمع يا (أدهم) .. هذه المرة لا توجد وسيلة واحدة للفرار .. الطوق الذى يحيط بعنقك لا ينهزم أبدًا ..

ثم أدار عينيه إليها ، واستطرد بنبرة ساخرة للغاية :

ـ لا يوجد نظام أمني واحد ، لا يحوى أية ثغرات .

أجابته في تحد :

ـ إلا لو أشرف على وضعه خبير ، يمتلك إمكانيات بلا حدود .

قال بنفس النبرة الساخرة :

ـ مهما بلغت خبرته وإمكانياته ، سيظل مجرد بشر .

قالت في تحد أكبر :

ـ سنرى يا (أدهم) .

تألقت عيناه ، وهو يقول :

ـ سنرى يا (سونيا) .

ألقت سيجارتها في حجرته بمنتهى الحنق ، واستدارت تغادر المكان كله ..

وفي هدوء ، اتجه هو نحو السيجارة ، الملقاة في الركن ، وسحقها بقدمه ، قبل أن يغمغم بابتسامة واثقة :

ـ القواعد هي القواعد يا عزيزتي (سونيا) .. لا يوجد نظام أمني واحد ، يمكن أن يخلو من الثغرات تمامًا .. هذا هو المستحيل الحقيقي .

قالها ، واتسعت ابتسامته ، وحملت الكثير من الثقة .. ومن الغموض ..

الكثير جدًا .

* * *

٢ - المنظمة ..

« إنها فضيحة .. »

هتف الرئيس الأمريكي بالعبارة ، وهو يضرب سطح مكتبه بقبضته في غضب هادر ، قبل أن يواجه وزير الدفاع ، مستطردًا في حدة :

- كيف يمكن لمنظمة ، مهما بلغت قوتها ، أن تسيطر على قمر صناعي ، من أقمار برنامج حرب النجوم ؟! المفترض أن تلك الأقمار هي أقوى أجهزتنا وأسلحتنا السرية ، والتي ينبغي أن تؤمن لنا القوة المطلقة ، والسيطرة الكاملة على خصومنا ، فكيف يحصل عليها بعض الأعداء بهذه البساطة ؟!

قال وزير الدفاع في عصبية :

- كلمة (البساطة) لا تصلح هنا أبدًا يا سيادة الرئيس .. لقد تم تدبير الأمر بحنكة ومهارة مذهلتين .. ثم إن الأمر تم الإعداد له منذ عام كامل على الأقل ،

وقبل إطلاق القمر نفسه في مداره ، فقد تم تزويده ببرنامج إضافي سري ، يلغي سيطرتنا عليه تمامًا ، في الوقت المناسب ، ويضمن سيطرة تلك المنظمة عليه بصورة كاملة .

لوّح الرئيس الأمريكي بذراعيه ، صائحًا :

- هكذا .. ما هي البساطة إذن ، ما لم تكن كذلك ؟! المفترض أن تلك الأقمار ، المزودة بمدافع الليزر ، هي قمة التكنولوجيا العسكرية ، وأن كل خطوة فيها تمت تحت رقابة أمنية مشددة ، وعلى الرغم من هذا ، فقد تسلل البعض من ثغرة في نظامنا الأمني ، وسيطر على قمر قتالي من الطراز الأول .. من أدرانا الآن أن كل أجهزتنا ليست تحت السيطرة نفسها ، وأن مشروع حرب النجوم كله لم يعد أقوى أسلحة منظمة (إكس) ؟!

قال وزير الدفاع :

- لقد درسنا هذا الاحتمال ، ولكنه غير وارد أبدًا يا سيادة الرئيس ، فالقمر الذي تمت السيطرة عليه

هو آخر قمر فى مشروع حرب النجوم ، تم إطلاقه من قاعدة (كيب كيندى)(*)، منذ عام تقريبًا .. الأقمار الأخرى كلها أطلقت قبل هذا التاريخ بعامين كاملين ، ومن المؤكد أن منظمة (إكس) لم تكن قادرة - حينذاك - على السيطرة على تلك الأقمار .

هتف الرئيس الأمريكى فى حدة :

- ومن أدرانا ؟!

أجابه وزير الدفاع فى حزم :

- الخبراء تأكدوا من هذا .

مال الرئيس نحوه ، قائلاً بنفس الحدة :

- هل ستترك لهم تلك القمر إذن ، ما دمنا تأكدنا من سلامة الأخرين ؟!

(*) قاعدة (كيب كيندى) : (مركز جون كيندى للفضاء) ، تقع فى المنطقة الشرقية المركزية من (فلوريدا) ، بدأت فيها أول تجارب استكشاف الفضاء الأمريكية ، عام ١٩٥٨م ، ومنها أطلقت (أبوللو - ١١) ، أول سفينة فضاء تهبط على سطح القمر ، وما زالت كل رحلات الفضاء تنطلق منها ، حتى يومنا هذا .

هز وزير الدفاع رأسه فى قوة ، قائلاً :

- كلا بالطبع .. إننا ندرس الآن وسائل تدميره .

هتف الرئيس الأمريكى فى ذعر :

- تدميره ؟!

أجابه وزير الدفاع :

- بالطبع يا سيادة الرئيس ، فاستعادة السيطرة عليه أمر مستحيل ! فى ظل الظروف الحالية .

انعقد حاجبا الرئيس الأمريكى فى عصبية ، وهو يقول :

- هل توصلتم إلى وسيلة لتدميره ؟!

تردد وزير الدفاع لحظة ، ثم أجاب فى حذر :

- إلى حد ما يا سيادة الرئيس .

هتف الرئيس فى غضب :

- ماذا تقصد بعبارة (إلى حد ما) هذه ؟!

تردد وزير الدفاع لحظة ، وعندما انفرجت شفتاه لينطق الجواب ، ارتفع رنين هاتفه الخاص بغتة ، فالتقطه من جيبه فى سرعة ، ووضعه على أذنه ، قائلاً فى توتر :

- هل من جديد ؟!

احتقن وجهه بشدة ، على نحو جعل الرئيس يسأله فى عصبية :

- أهى ضربة جديدة من المنظمة ؟!

رفع وزير الدفاع إليه عينين زائغتين ، وهو يجيب :

- نعم .. وباستخدام قمرنا القتالى المتطور .

كاد الرئيس الأمريكى يغوص فى مقعده هلعًا ، وهو يسأله ، بصوت شاحب مبحوح :

- كيف ؟!

وأجابه وزير الدفاع ..

وانتفضت كل خلية من خلاياه ..

وغاص كيانه كله فى مقعده أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

فالجواب كان مخيفًا ..

إلى حد رهيب ..

* * *

« حاملة طائرات بريطانية » .

ألقت (منى) العبارة فى توتر بالغ ، وهى تلوّح بذراعها فى عصبية ، قبل أن تتابع :

- المنظمة استخدمت القمر الأمريكى ، لتنسف حاملة طائرات بريطانية كاملة ، بكل ما عليها ومن عليها ، فى عرض المحيط الأطلنطى ، بلا أدنى رحمة أو شفقة ، ودون الحصول على غنيمة مادية واحدة .

سألتها دونا (كارولينا) فى حيرة :

- لماذا إذن ؟!

أجابتها (منى) فى مرارة :

- لمجرد استعراض القوة ، وليرى العالم قدرتهم على التدمير ، حتى ولو حولوا المحيط إلى بحيرة من الدم .

هزت (كارولينا) رأسها ، قائلة :

- يا إلهى ! حتى نحن لم نبلغ أبدًا هذا القدر .

تحركت (منى) فى عصبية زائدة ، داخل حجرة دونا ، وهى تقول :

- لابد من إيقاف هذا يا دونا .. لابد من إيقافه بأى ثمن ، قبل أن تسيطر تلك المنظمة الرهيبة على أمن وسلامة العالم أجمع .

قلبت (كارولينا) كفيها ، قائلة :

- ولكن كيف ؟! العالم كله يحاول ، بكل قوته وقدراته ، ولم يفلح قط ، ونحن نجهل حتى أين هم ، فما الذى يمكننا فعله ؟!

أجابتها (منى) فى حزم :

- المعرفة يا دونا .. أهم ما تعلمناه ، منذ بدأت على هذا ، هو أن أول خطوة لبلوغ النصر ، فى أى مضمار ، هى المعرفة ..

سألتها فى اهتمام :

- وكيف نحصل عليها ؟!

انعقد حاجبا (منى) فى شدة ، وهى تقول فى حزم صارم :

- بالقوة .

سألتها (كارولينا) ، فى اهتمام أكثر :

- كيف ؟!

صمتت (منى) بضع لحظات ، قبل أن تقول فى حزم :

- اسمعينى جيدًا .. الخيط الوحيد لدينا ، هو تلك الأفعى (سونيا جراهام) .. إنها جزء من منظمة (إكس) هذه .. ولن يدهشنى لو أنها زعيمتها الخفية أيضًا ، التى تتخفى تحت اسم مستتر (X) هذا ، ولو أننا نسعى حقًا خلف المعرفة ، فالسبيل الوحيد لبلوغها ، هو من خلال طرف الخيط .

وازداد انعقاد حاجبيها ، وهى تضيف :

- (سونيا جراهام) ..

تراجعت (كارولينا) فى مقعدها ، قائلة فى استمتاع واضح :

- عظيم .. أنا أعشق اللعب بهذه الأساليب .

تابعت (منى) ، وكأنها لم تسمعها :

- (سونيا) سافرت إلى (فنزويلا) ، وتعاملت هناك ، باسم (كلارا فلوراس) ، ولو أننا انطلقنا خلفها من هناك ، فسنجد حتمًا من رآها ، وتعامل معها ، والتقى بها .. ومن هذا وذاك ، سنحصل على معلومة أو أخرى ، وبحصيلة معقولة من المعلومات ، سنتعقب طرف الخيط ، حتى نبلغ بعض أجزائه ، وخطوة فخطوة ، سنصل إلى شىء ما حتمًا .

رفعت (كارولينا) حاجبيها ، وقالت :

- وهل تعتقدين أن لدينا الوقت الكافى ، للقيام بكل هذا ؟!

أجابتها (منى) فى حزم :

- ليس إذا اتبعنا الوسائل التقليدية حتمًا ، لذا فستجمع المعلومات دون أن نضيع الوقت ، فى محاولة لإخفاء أهدافنا الحقيقية .

ثم مالت نحوها ، مضيفة بحزم أكبر :

- باختصار .. سنعمل بأسلوبكم ، لا بأسلوبنا .

التقطت (كارولينا) نفسًا عميقًا ، وارتسمت على شفتيها ابتسامة جذلة ، وهى تقول :

- ألم أقل لك : إننى أعشق اللعب بهذه الأساليب ؟!

ثم التقطت هاتفها الخاص ، وضغطت أزراره فى سرعة ، وما إن سمعت صوت محدثها ، حتى قالت :

- هنا دونا (كارولينا) .. هناك أوامر جديدة .. عملية لها الأولوية المطلقة .. كل العمليات الأخرى يتم إيقافها أو تأجيلها ، وكل رجل ينتمى إلينا ، فى كل مكان فى العالم ، يضع نفسه على أهبة الاستعداد ، للقيام بهذه العملية الجديدة ، أو المشاركة فيها ، بأى قدر يتطلبه الموقف .. هل تفهم ؟!

ثم رفعت عينيها إلى (منى) ، قائلة فى جذل عجيب :

- إننى أعشق هذا حقًا .

ولم تعلق (منى) ..

فقط انعقد حاجباها ، وسرت فى جسدها موجة خفيفة من التوتر ..

فعشق دونا (كارولينا) للأمر لم يكن يعنيها ، من بعيد أو قريب ..

كل ما يعنيها الآن ، هو الرجل الوحيد ، الذى خفق قلبها بحبه ، منذ وعت الدنيا ..

(أدهم) ..

(أدهم صبرى) ..

وكل نبضة فى قلبها كانت تهتف باسمه ، وتتساءل فى جزع مذعور مرتاع ..

تُرى أما زال على قيد الحياة ؟!

وهل سيكتب لها أن تلتقى به ثانية ؟!

هل ؟!

* * *

« ما تفعلونه لا يروق لى قط .. »

نطق (بارون دزرائيلى) بالعبارة ، فى غضب واضح ، وهو يواجه (سونيا) فى حجرتها ، فرفعت إليه هذه الأخيرة عينيها فى برود ، ونفثت دخان سيجارتها الطويلة فى وجهه ، وهى تقول :

ـ وما الذى تفعله بالضبط يا عزيزى (بارون) ؟!

أجابها فى حدة :

ـ لماذا تتركون ذلك المصرى على قيد الحياة ؟!

هزّت كتفيها ، قائلة :

ـ هذه أوامر مستر (X) .

ابتسم فى سخرية متوترة ، وهو يقول :

ـ مستر (X) ؟! هل تتصوّرين أنك قادرة على خداع الجميع إلى الأبد يا (سونيا) ؟!

رفعت حاجبيها بدهشة مصطنعة ، وهى تعتدل فى مقعدها ، قائلة :

ـ قادرة على خداع الجميع ؟! ما الذى تعنيه بالضبط يا (دزرائيلى) ؟!

مال نحوها ، قائلاً فى صرامة :

ـ أعنى أنك ربما أعددت اللعبة بذكاء خارق ، وتكنيك مرتفع للغاية هذه المرة ، وربما نجحت فى خداع (بريماكوف) و (شامبليون) ، ولكن لن يمكنك خداعى أنا يا (سونيا) .. أنا وحدى أعرف من أنت بالضبط ، وما الذى يمكنك فعله ، لبلوغ أهدافك .

نفثت دخان سيجارتها في قوة، وقالت في برود عجيب :

- ما زلت أجهل ما تعنيه !

مال نحوها أكثر، وهو يقول في صرامة :

- إنني أعني خدعة مستر (X) هذه .

سألته بنفس البرود :

- أية خدعة ؟!

تراجع ملوّحًا بيده، وهو يهتف :

- مستر (X) نفسه خدعة كبيرة .. خدعة لا وجود لها قط، في عالم الواقع .. إنه مجرّد اسم، وصورة مشوّهة على شاشة كمبيوتر، مبرمج بحيث يعطي ردود أفعال عامة، تصلح لأية مناقشة مفتوحة، بل وأجوبة تناسب كل سؤال، بحيث نتصوّر جميعًا أنه زعيم خفي حقيقي، ولكن الحقيقة الفعلية هي أنك أنت زعيمة منظمة (إكس) يا (سونيا) .

هتفت :

- أنا ؟!

ثم ارتسمت على شفتيها ابتسامة ساخرة، وهي تضيف :

- أخطأت التصويب كثيرًا هذه المرة يا (بارون) .

أجاب في صرامة :

- بل أصبت الهدف مباشرة يا (سونيا)، وهذا أكثر ما يزعجك ويقلقك .. لقد كشفت ما حرصت على إخفائه، بكل ما تمتلكين من قوة ومهارة .. أنت قلتها .. (سونيا جراهام) تربح في النهاية .. لقد أعددت كل شيء بحيث تضمنين الربح تمامًا هذه المرة .. لقد قلتم إن إعداد هذه المنظمة، والتجهيز لظهورها على الساحة، احتاج أكثر من عامين كاملين، حتى تأتي بهذه القوة والدقة .. وجزء من الإعداد والتجهيز، كان عملية اختراع مستر (X) نفسه الزعيم الوهمي، الذي تختفي خلفه (سونيا جراهام) .. الأفعى العبقرية، التي لا تخسر معاركها قط .

أطفأت سيجارتها في هدوء مستفز، وهي تقول :

- خطأ يا (بارون) .

هزّ رأسه فى قوة ، قائلاً :

ـ لا يوجد أى خطأ يا (سونيا) .. لقد درست الأمر كله ، منذ وصلنا إلى هنا .. الجميع يعملون بمنتهى الدقة والنظام والإتقان ، دون أن يرى أحدهم مستر (X) المزعوم هذا ولو مرة واحدة .. حتى أنا و (بوبماكوف) و (شامبليون) ، لم نره قط ، سوى كظل وهمى ، على شاشة الاتصال ، أو كأوامر صارمة حازمة ، تأتى بصوت آلى مصطنع ، عبر شبكة الإنترنت .. ولكن الأكثر عجبًا من كل هذا ، هو أن الجميع يطيعون أوامرك أيضًا ، بمنتهى الاحترام والتوقير ، وكأنهم يعلمون ويدركون ، لسبب ما ، أنك الزعيم الفعلى للمنظمة كلها .. حتى عندما التقى بنا مستر (X) هذا مجتمعين ، كان كل منا فى حجرته ، ولم تجتمع معًا لمواجهته ، وكأنما لم يكن اللقاء الجماعى ممكنًا .. أتعلمين لماذا ؟! لأن أحدنا هو مستر (X) ، الذى سيناقش آراءنا ، ويجيب أسئلتنا ، فكيف يمكن أن يظهر فى مكانين معًا ؟!

قالت فى صرامة ، وهى تشعل سيجارة ثانية :

ـ قلت لك : إنك مخطئ يا (بارون) .

قال فى سخرية :

ـ حقًا ؟!

ثم عاد يميل نحوها ، مستطردًا :

ـ أخبرينى أنت إذن .. ما تفسير كل هذا يا عزيزتى (سونيا) ؟!

أجابته فى حزم :

ـ تفسيره هو أننى كنت هنا أولاً .. كنا بدأت المنظمة كفكرة مجنونة ، منذ عامين كاملين ، مع مستر (X) .. كنا كافحت وقاتلت ، وصنعت أكثر من نصف ما تراه حولك ، قبل حتى أن يتم الاتصال بأحدكم ..

انعقد حاجباه ، وهو يقول :

ـ هذا مستحيل عمليًا يا (سونيا) ، فخلال العامين اللذين تتحدثين عنهما ، كنت تقاتلين للسيطرة على العالم ، من خلال عمالقة الاقتصاد فى العالم ، وتلك الحمقاء ، التى أطلقت على نفسها اسم المنيور(*) .

(*) راجع قصة (الأربعة الكبار) .. المغامرة رقم ١٦٨

هبت من مقعدها ، هاتفة :

ـ وماذا فى هذا ؟!

ثم اتجهت نحوه فى صرامة ، وهى تلقى سيجارتها المشتعلة بامتداد يدها ، وتواصل فى حدة :

ـ ربما كان هذا مستحيلاً بالنسبة لأحمق مثل (بريماكوف) ، أو مجنون مثل (شامبليون) ، أو حتى مغرور مثلك ، ولكنه ليس كذلك أبداً ، بالنسبة لـ (سونيا جراهام) .. إننى قادرة على العمل فى ألف مضمار ، فى آن واحد ، دون أن أفقد السيطرة على أيها ، ولو للحظة واحدة .. لقد كنت أقاتل للسيطرة على الموقف فى (كوماندا) ، ولم يمنعنى هذا من إنقاذ ابنى الوحيد ، من بين أنياب رؤسائك فى (تل أبيب) .. بل وجعلت (زيلمان) يدفع ثمن دس أنفه فى شئونى أيضاً .

قال فى دهشة :

ـ (زيلمان) ؟! (تيودور زيلمان) .. مدير الـ ...

قاطعته فى صرامة :

ـ لم يعد كذلك .

بهت لقولها ، وهو يغمغم فى عصبية :

ـ لم يعد .....

قاطعته مرة أخرى :

ـ نعم .. لم يعد مديراً لجهاز المخابرات الإسرائيلى .. (بيكويك) هو مديره الآن .

ارتفع حاجباه لحظة فى دهشة ، ثم لم يلبث أن خفضهما ، قائلاً فى توتر :

ـ أيعنى هذا أن (بيكويك) أيضاً يعمل لحسابك ؟!

مالت نحوه أكثر ، وهى تقول فى صرامة :

ـ لحسابنا يا (دزرائيلى) .. لحسابنا .

حدّق فى وجهها لحظة ، فى غضب شديد ، قبل أن يهزّ رأسه فى قوة ، قائلاً :

ـ كلاّ يا (سونيا) .. لن يمكنك خداعى .

ثم لوّح بذراعه ، هاتفاً :

- إصرارك على إبقاء ذلك المصرى على قيد الحياة كشف حقيقتك .

قالت فى غضب :

- قلت لك : إنها أوامر مستر (X) .

صاح فى حدة :

- خطأ .. خطأ .. هل تعلمين لماذا لا تحاولون قتل (أدهم صبرى) ؟! لأنك تحبينه يا (سونيا) .

هتفت فى غضب :

- أنا ؟!

أجاب فى صرامة :

- نعم يا (سونيا) .. على الرغم من عدائك السافر له ، وكل محاولاتك للقضاء عليه ، فكل ذرة فى كيانك غارقة فى حبه يا (سونيا) .. لقد رأيت هذا واضحاً فى وجهك ، عندما كاد ذلك الطوق الإليكترونى يعتصر عنقه .. لقد أصابك ذعر شديد ، لا يشبه ما يمكن أن يصيب مقاتلة ، تسعى للسيطرة على العالم ..

واستعاد ابتسامته الساخرة ، مضيفاً :

- بل كان يناسب عاشقة ، رأت حبيبها يواجه الخطر أمام عينيها .

انعقد حاجباها فى شدة ، وهى تقول :

- أنت وغد يا (بارون) .

قهقه ضاحكاً فى توتر ، وهو يجيب :

- وغد على حق يا عزيزتى .

ثم عاد يميل نحوها ، مستطرداً فى صرامة :

- على حق فى كل ما ذهب إليه .

رمقته بنظرة غاضبة ، صارمة ، طويلة ، قبل أن تقول :

- للمرة الأخيرة ، أخبرك أنك مخطئ يا (بارون) .

سأل فى سخرية عصبية :

- مخطئ فى ماذا بالضبط يا عزيزتى (سونيا) ؟!

صمتت بضع لحظات ، وهما يتبادلان نظرة مشتعلة بالتحدى ، قبل أن تجيب ، بكل صرامة الدنيا :

- أنا لست مستر (X) .

تسللت الابتسامة الساخرة إلى شفتيه مرة أخرى ، وهو يقول :

- هذا ما ستثبته الأيام يا (سونيا) .

تبادلا نظرة التحدى مرة أخرى ، ثم دار على عقبيه ، وغادر حجرتها فى خطوات واسعة سريعة ..

وفى نفس اللحظة ، التى اختفى فيها ، برز حارسها الخاص (رونالدو) ، من خلف دولاب ضخم فى الركن ، وجذب مسدسه من حزامه ، قائلاً :

- هل يمثل لك أية مشكلات يا سيدتى ؟!

أشارت إليه بإعادة المسدس إلى حزامه ، وأشعلت سيجارة جديدة ، وهى تقول فى عصبية :

- (بارون دزرائيلى) ليس الشخص ، الذى يمكنك القضاء عليه بعملية اغتيال بسيطة .

قال فى حماس :

- كان يمكننى إطلاق النار عليه من مكمنى طوال الوقت .

قالت فى حدة :

- لو أنك خطوت خطوة واحدة عندئذ ، لوجدت نفسك فى الجحيم ، قبل حتى أن تلتقط مسدسك .

انعقد حاجباه فى شدة ، وكأنما لا يروق له ما سمعه منها ، ومط شفتيه فى اعتراض مستنكر ، فتابعت هى ، دون أن تنتبه إلى هذا :

- دعك منه الآن ، فالخطوة التالية ، تحمل أهم ضربة ، فى خطة صعودنا كلها ..

وانعقد حاجباها ، وهى تضيف :

- إنها مرحلة إثبات القوة ، وتأكيد الوجود .

غمغم فى حيرة :

- كنت أظن هذا قد تحقق ، مع نسف حاملة الطائرات البريطانية !

هزت رأسها فى قوة ، ونفثت دخان سيجارتها ، وهى تجيب :

- كلا .. نسف حاملة الطائرات البريطانية كان مجرد وسيلة ، لإثبات ما يمكن أن نفعله ، أما الآن ، فنحن نحتاج إلى إعلان عالمى .

سألها في حيرة أكبر :

- مثل ماذا ؟!

انعقد حاجباها أكثر وأكثر ، وهي تجيب :

- نحتاج إلى الخضوع .. لابد أن يخضع العالم كله لنا .

سألها :

- كيف ؟!

تألقت عيناها ببريق وحشي عجيب ، وهي تجيب :

- بأن نسحق دولة كاملة .

ثم حمل صوتها رجة شرسة مخيفة ، مع إضافتها :

- وبلا رحمة .

* * *

عبرت سيارة مدير المخابرات العامة مدخل منزل رئيس الجمهورية ، واتجهت مباشرة نحو موقف خاص ، وما إن توقفت فيه ، حتى قفز منها مدير المخابرات ، واتجه مباشرة نحو مدير مكتب الرئيس ، الذي استقبله قائلاً في انفعال :



تألقت عيناها ببريق وحشي عجيب ، وهي تجيب :
- بأن نسحق دولة كاملة ! ..

- حمداً لله على أنك قد أتيت فى موعدك بالضبط يا سيدى .. سيادة الرئيس ينتظر قدومك بفارغ الصبر .

أجابه مدير المخابرات المصرية ، وهو يسير إلى جواره ، بخطوات سريعة ، عبر ممرات منزل الرئيس :

- لقد حضرت بأقصى سرعتى ، ولكن يدهشنى أن فخامة الرئيس لم يحاول استخدام خط الاتصال المباشر .

تنهّد مدير مكتب الرئيس ، مغمغماً :

- يبدو أن فخامته لم يعد يثق بأية اتصالات .

وافقه مدير المخابرات بإيماءة من رأسه ، قائلاً فى خفوت :

- إنه على حق .

لم تمض لحظات ، حتى كان رئيس الجمهورية يستقبله ، وهو يقول فى غضب :

- تلك المنظمة تجاوزت حدودها بحق .

سأله مدير المخابرات فى قلق شديد :

- ما الذى فعلوه هذه المرة ؟!

أجابه الرئيس :

- لقد أعلنوا هدفهم القادم ، على نحو سافر متبجح ، لم يسبق له مثيل ، فى ذلك العالم قط .

سأله مدير المخابرات ، فى حذر متوتر :

- وما هو هدفهم القادم يا سيادة الرئيس ؟!

انعقد حاجبا رئيس الجمهورية فى شدة ، وهو يجيب فى غضب :

- السد العالى(*) .

واتسعت عينا مدير المخابرات ..

فالخبر كان مذهلاً ..

بحق .

* * *

(*) السد العالى : أقيم جنوب (أسوان) ، لتخزين المياه ، وموازنة الفيضانات ، وتوليد الكهرباء ، ويتكون من جبل من الجرانيت ، ارتفاعه مائة وأحد عشر متراً ، وعرضه ألف متر بالقاعدة ، و ٣٢ متراً فى أعلاه ، وطوله ٣٦٠٠ متر ، وبه ساتر رأسى قاطع للمياه . ولقد وضع الرئيس (جمال عبد الناصر) حجر الأساس للمشروع فى ٩ يناير ١٩٦٠م ، وتكلف ما يقرب من ٤١٥ مليون جنيه ، واحتفل بالانتهاء من تنفيذه ، فى يناير ١٩٧١م .

٣ - أخطر الأهداف ..

لم يكد الخبر يُلقى على مسامع رجال المخابرات العامة المصرية ، فى حجرة الاجتماعات الكبرى ، حتى سرت فى أجسادهم موجة عنيفة من التوتر ، وراحوا يتبادلون نظرات تحمل كل توترهم وانفعالهم ، قبل أن يقول أحدهم :

- وهل يمكنهم هذا بالفعل يا سيادة المدير ؟؟

أومأ مدير المخابرات برأسه إيجابًا ، وقال فى حزم متوتر :

- نعم .. يمكنهم هذا للأسف .. لقد أمكنهم السيطرة على قمر قتال أمريكى ، يحمل أحدث مدفع من مدافع الليزر ، كما أن لديهم مقاتلة نفاثة ، تعد أحدث ما ابتكرته تكنولوجيا الطيران ، وهى (الشبح - ٢) ، التى ما زالت تحمل عددًا من الصواريخ ، ذات الرءوس النووية المحدودة ، كما أنهم يقودون الغواصة الروسية

النووية ، التى تحمل صاروخًا بعيد المدى ، له رأس نووى من الطراز نفسه ، وبأى سلاح من تلك الأسلحة ، يمكنهم إصابة السد العالى .

قال رجل آخر فى انفعال :

- ولكن جسم السد قوى للغاية يا سيدى ، والمفترض أنه قادر على احتمال ضربة كهذه ، دون أن ينهار تمامًا .

أشار المدير بسبابته ، قائلاً :

- هذا صحيح ، ولقد استنفرنا كل وسائل الدفاع الجوى ، وكل أسرابنا المقاتلة ، لحماية السد ، كما أطلقت ثلاث من غواصاتنا ، لحماية مياهنا الإقليمية ، ولكن ما زال هناك خطر القمر الصناعى ، ومدفعه الليزرى .

هزّ أحد الرجال رأسه ، قائلاً فى عصبية :

- وكأننا نشاهد أحد أفلام الخيال والحركة الأمريكية .

وافقه المدير بإيماءة من رأسه ، قائلاً :

- لم يعد هناك فارق كبير يا رجل .. التكنولوجيا قفزت قفزات واسعة جداً ، فى السنوات الخمس الأخيرة ، حتى انكمشت الفجوة بين الواقع والخيال بشكل ملحوظ .. بل ولن أكون مبالغاً ، لو قلت إن العلم قد تجاوز حدود الخيال ، فى العامين الأخيرين بالتحديد ، لدرجة أن ما كنا نراه خيالاً محضاً مبالغاً فيما مضى ، قد صار اليوم تكنولوجيا قديمة ، تحتاج إلى تعديل جذرى ، لتواكب التطور السريع .

ثم التقط نفساً عميقاً ، وتابع فى حزم :

- ولكن المهم أننا أمام واقع الآن .. واقع مخيف ، قدّر الخبراء ما يمكن أن ينشأ عنه بأرقام سخيفة للغاية .

ثم التقط ورقة من أمامه ، متابعاً :

- فلو نجحت تلك المنظمة الحقيرة ، فى إصابة السد العالى ، سيؤدى هذا إلى إغراق ما يقرب من خمسة ملايين من الأفدنة والمنشآت ، ومصرع ما يقرب من ستة ملايين من البشر ، كما أن تحطم مولدات الكهرباء قد يؤدى إلى انقطاع الطاقة عن كل مدن

الجمهورية تقريباً ، وتعطُّل آلاف المصانع ، وانهيار الطاقة الإنتاجية لشهر كامل ، مما سيؤدى حتماً إلى فجوة اقتصادية ، لن يمكن رتقها بسهولة ، مع توقُّف مشروعات البنية التحتية لوقت لا يعلم مداه سوى الله سبحانه وتعالى .

تبادل الرجال نظرة أخرى ، أشد عصبية وتوتراً من سابقتها ، قبل أن يقول أحدهم ، فى انفعال واضح :

- الواقع أن هذا قد أقلقنا بشدة ياسيدى ، فهو يعنى أن (أمريكا) و(روسيا) تمتلكان بالفعل ما يكفى لتهديد أمننا ، ويمكن لأيهما أن تهاجمنا بتلك الأسلحة ، فى أى وقت .

أجابه المدير فى حزم :

- نحن أيضاً نمتلك ما يكفى لتهديد أمنهما ، وكل دولة طبيعية فى العالم أجمع ، تمتلك ما يكفى لتهديد أمن وسلامة أية دولة أخرى ، ولكن أحداً لن يستخدم تلك الأسلحة الكبيرة ، إلا فى حالات الحروب العنيفة والمباشرة ، لأنه حتى فى حالة الدول ، مازالت

القاعدة الفيزيقية الشهيرة سارية .. لكل فعل رد فعل ، مساو له فى القوة ، ومضاد له فى الاتجاه .. وهذا يعنى أن أية دولة ، لابد أن تحسب جيدًا رد فعل أية دولة أخرى ، قبل أن تبادرها بهجوم كهذا ، ولكن بالنسبة لمنظمة مثل منظمة (إكس) ، يجهل الجميع كل شىء عنها تقريبًا ، لا يمكننا أن نستبعد ما سيحدث ؛ لأنها تعلم أن رد الفعل هنا منعدم .

سأل رجل آخر :

ـ فلماذا إذن لم يتم ضرب الهدف مباشرة دون إنذار ، كما حدث مع حاملة الطائرات البريطانية ؟!

أجابه فى سرعة :

ـ لأن الهدف هنا يختلف .. منظمة (إكس) نسفت حاملة الطائرات البريطانية لتعلن قوتها فحسب ، أما الآن ، فهى تريد أن يرى العالم بأكمله خضوعنا لها ، أو العقاب الذى نلقاه ، لأننا لم نفعل .. لقد أرسلوا صيغة الإنذار إلى كل الحكومات العربية والعالمية ، وكلها تقول : إنهم سينسفون السد العالى بلا رحمة أو هوادة ، خلال ست ساعات فحسب ، ما لم نعلن رسميًا اعترافنا بالمنظمة ، ونقر باستعدادنا لتنفيذ كل مطالبها مستقبلاً .

هتف أحد الرجال :

ـ مطالب لا يمكن الموافقة عليها .

أجابه مدير المخابرات :

ـ ربما يعلمون هذا .. وربما هذا ما قصدوه بالضبط .. أن تتجاوز مطالبهم حدود المعقول ، بحيث لا يمكننا قبولها ، ويعلم العالم كله أننا قد رفضناها ، وعندئذ يتم نسف السد العالى ، بكل ما سيتبعه هذا من خراب ودمار ، فنصبح نحن عبرة لمن يعتبر .

اتسعت عيون الرجال ، وتبادلوا نظرة أخرى ، قبل أن يقول أحد ضباط المخابرات فى عصبية :

ـ وما الذى يمكننا أن نفعله الآن يا سيدى ؟!

تنهد مدير المخابرات ، قبل أن يقول :

ـ لا يمكننا أن نفعل أكثر مما نفعله بالفعل يا رجال .. إننا ننبش العالم كله ، بحثًا عن أى أثر ، يمكن أن يقودنا إلى منظمة (إكس) ، ولدينا فرق تنتشر ، فى كل المناطق الجليدية المحتملة فى العالم ، وزميلتكم (منى توفيق)

تقاتل بكل قوتها ، وبمعاونة دونـا (كارولينا) ، زعيمة منظمات (المافيا) ، للبحث عن أى طرف خيط ، يمكن أن يقود إلى الهدف ، هذا بالإضافة إلى ما يقوم به الأمريكيون ، والروس ، والبريطانيون ، والفرنسيون ، والصينيون ، واليابانيون ، وحتى الإسرائيليون .

قال رجل منهم ، فى توتر بلغ ذروته :

- ولكن الوقت يمضى بسرعة مخيفة يا سيدى .

أومأ المدير برأسه إيجابًا ، وقال ، وهو يطلق من أعمق أعماق صدره زفرة ملتهبة كالجحيم :

- هذا صحيح

ثم صمت لحظة ، ليضيف فى حزم :

- وهذا يعيدنى إلى عبارة تبادلناها ، الرئيس وأنا ، عندما كنا نناقش أمر زميلكم (أدهم صبرى) .

تطلّع إليه الجميع فى اهتمام بالغ ، فتابع بكل الحزم :

- فبعد الله (سبحانه وتعالى) .. هو أملنا .. أملنا الوحيد .

ولم يعد هناك بعدها ما يقال ..

ولكن السؤال نفسه تفجّر فى عقول الجميع .

لو أن (أدهم صبرى) هو الأمل الوحيد ، بعد الله (سبحانه وتعالى) ، فى انزياح هذه الغمة ، فهل ما زال الأمل على قيد الحياة ؟!

هل ؟!

* * *

لم يكد رنين جرس الباب ينطلق ، فى منزل (خوزيه) .. متعهّد الأجهزة الطبية الأول فى (كراكاس) ، حتى ابتعد بجسده الضخم عن صديقته الرشيقة ، وهتف فى غضب :

- من ذا الذى يأتى ، فى مثل هذه الساعة ؟!

هزّت كتفيها فى دلال ، قائلة :

- من يدرى ؟! ربما هى صفقة عمل جديدة .

هتف مستنكرًا :

- فى هذه الساعة ؟!

أشاحت بوجهها ، قائلة :

- صفقاتك لا تنتهى قط .

أطلق سبابًا ساخطًا محنقًا ، والتقط روبًا من الحرير الصينى الثمين ، ألقاه على جسده الضخم ، وهو يتجه نحو الباب ، هاتفًا :

- حسنًا .. حسنًا .. أنا قادم .

فتح الباب فى حدة ، وهتف :

- ماذا تريد فى هذه الساعة ؟!

بدا الرجل الأنيق الواقف أمامه هادئًا للغاية ، وهو يسأله :

- أأنت (خوزيه) ؟!

أجابه فى حدة عصبية :

- نعم .. أنا هو .. من أنت ؟! وماذا تريد بالضبط ؟!

قال الرجل فى هدوء :

- كنت أرغب فى الحصول على بعض المعلومات ، الخاصة بالطائرة ، التى تم تجهيزها طبيًا .

ارتسمت الصرامة على وجه (خوزيه) ، وهو يقول :

- الطائرة ؟! ليست لدى أية معلومات عن .....

قبل أن يتمّ عبارته ، انطلقت قبضة قوية ، لترتطم بأنفه مباشرة ، وتلقى به مترين إلى الخلف ، ليسقط وسط ردهة المنزل فى عنف ، وهو يصرخ :

- ماذا يحدث هنا ؟!

اندفعت صديقته إلى الصالة ، إثر صرخته ، وهى تهتف :

- (خوزيه) .. ماذا ..

بترت عبارتها شاهقة ، عندما رأت مسدسين مصوبين إليه ، وثالث مصوّب إليها ، فى حين يقول رجل رابع ، فى هدوء شديد ، وهو يجلس على أكبر مقاعد الصالة بأناقة :

- ارتدى ملابسك ، وغادرى المكان على الفور .

اتسعت عيناها فى رعب ، وهى تتراجع قائلة :

- سأفعل .. سأفعل .

تركها الرجال تغادر المنزل بلا مبالاة ، وكأنما لا يخيفهم كل ما يمكنها أن تفعله ، في حين سأل الأنيق (خوزيه) بنفس الهدوء :

- ماذا لديك يا رجل ؟!

هزّ (خوزيه) رأسه في قوة ، قائلاً :

- لا شيء .. الواقع أنني ..

لم تكن عبارته قد اكتملت ، عندما هوى أحدهم على فكه بلكمة كالقنبلة ، ثم سحبه آخر إلى ركن الصالة في قسوة ، وراح يقيّده إلى مقعد ضخم ، فصرخ :

- لن يمكنني أن أخبركم بشيء .. هي قالت : إنها ستقتلني ، لو بحت بحرف واحد ، لو ..

قبل أن يكمل حديثه ، انطلقت رصاصة صامتة ، من مسدس أحدهم ، المزوّد بكاتم للصوت ، لتخترق ركبته اليسرى ، فأطلق صرخة ألم رهيبة ، في نفس الوقت الذي تراجع فيه الأنيق في مقعده بهدوء تام ، قائلاً :

- أعتقد أنه يحق لك أن تعلم ، أنك لست أول من نستجوبه اليوم يا (خوزيه) ، ولكنني كنت أتمنى أن تصبح أكثر حظاً من الآخرين ، فرئيس المدينة لم يحتمل الاستجواب ، وأصيب بشلل عام ، بعد أن حصلنا منه على ما نريد بالطبع ، وكبير مفتشي الشرطة توسّل إلينا كثيراً ، وهو يغوص في البحر ، مع دلو الأسمنت في قدميه ، أما ..

قاطعه (خوزيه) ، وهو يصرخ في ألم وذعر :

- سأخبركم .. سأخبركم كل ما لدي .. أقسم لك .

ارتسمت ابتسامة هادئة ظافرة واثقة ، على شفتي الرجل ، وهو يقول في حزم :

- كنت واثقاً من أنك ستفعل .

ثم راح يستمع إليه ..

بمنتهى الاهتمام ..

والهدوء ..

* * *

«أربع ساعات وخمسون دقيقة .. قبل إصابة الهدف..»

تردد الصوت ، فى حجرة المتابعة والمراقبة ، فتألقت عينا (سونيا جراهام) ، وهى تقول :

ـ عظيم .. ما زلنا نمتلك السيطرة الكاملة على القمر !؟

أجابها (شامبليون) فى جذل واضح :

ـ بالتأكيد يا عزيزتى (مادلين) .. الأمريكيون ما زالوا يبحثون عن وسيلة لتدميره ، ولكن هذا يحتاج منهم إلى اثنتى عشرة ساعة على الأقل ، تماماً كما نحتاج نحن إلى تلك الساعات الطويلة ، لتوجيه مدفع الليزر بالقمر ، إلى الهدف المصرى تماماً .

تراجعت فى مقعدها ، قائلة بابتسامة ظافرة :

ـ كل شىء يحتاج إلى الوقت .

ثم التفتت إلى (بريماكوف) ، مستطردة :

ـ وهذا يذكرنا بالهدف التالى .

ابتسم الجنرال الروسى ، قائلاً :

ـ نحن على أتم استعداد لمواجهته .

هز (شامبليون) كتفيه ، قائلاً :

ـ أكبر حاملة طائرات أمريكية .. يا له من هدف ! ستفوز بسرب كامل من الطائرات المقاتلة .

أجابه (بريماكوف) فى حماس :

ـ أفضل صفقة لجيشنا القادم .

ارتسمت ابتسامة ساخرة ، على شفتى (بارون) ، وهو يقول :

ـ جيشنا القادم !؟ يا له من حلم !

تطلع إليه الثلاثة فى دهشة مستنكرة ، قبل أن تقول (سونيا) فى صرامة :

ـ من الواضح أنك لم تعد تشاركنا هذا الحلم يا (مزرائيلى) .

هتف فى حدة :

ـ حلمكم !؟ بل قولى حماقتكم يا (سونيا) .

انتفض الجنرال (بريماكوف) فى عنف ، وهو يهتف :

- حماقتنا ؟!

أما (شامبليون) ، فقد انعقد حاجباه فى شدة ، وهو يدير عينيه إلى (سونيا) فى دهشة ، ويعقد كفيه خلف ظهره فى توتر ، وبوقفة عسكرية صارمة ، فى حين تابع (بارون) فى غضب :

- فى البداية ، عندما انضممت إليكم ، كنت أتصوَّر أننا نسعى للتفوق والسيطرة ، حتى نصبح أقوى منظمة جاسوسية خاصة عرفها العالم ، بكل ما سيتبع هذا من ثراء ، وقوة ، وأموال تنفق بلا حساب .. كنت أحلم بالثروة والنفوذ .. شيء أشبه بما حصلت عليه (المافيا) ، بعد ما يقرب من قرن كامل من الصراع .. كنت أتصوَّر أننا سنحظى بكل هذا ، خلال أشهر قليلة ، بسبب ما نمتلكه من تكنولوجيا متقدمة ، ولكننى لم أحلم لحظة واحدة بالسيطرة على العالم ، أو إقامة نظم جديدة .. ما لنا نحن والنظم القديمة والجديدة ؟! ما لنا والحكم ومتاعبه ومشاكله ؟! هل تتصوَّرون أن الحكومات ستخضع لكم بهذه البساطة ، حتى ولو امتلكتم حقلاً كاملاً من الصواريخ النووية والمقاتلات الجبارة ؟!

يا لها من سخافة ؟! الدول لا تستسلم دون حروب أيها السادة .. وحروب طاحنة ، عنيفة .. طويلة .. الحكومات لا تتنازل عن مقاعدها هكذا ، دون أن تدافع باستماتة عن كل شبر منها .

انتفض جسد الجنرال (شامبليون) هذه المرة ، وهو يهتف :

- ولكننا نستطيع أن ...

قاطعته (سونيا) بإشارة من يدها ، قائلة فى صرامة :

- حلمك لم يختلف كثيرًا عن حلمنا يا (بارون) .. فى كل الأحوال سنحصل على ثروات ضخمة ، وأموال تنفق بلا حدود .. ومعنا ستصبح غنيًّا .. غنيًّا إلى حد لن يمكنك تصوُّره .

قال فى سخرية :

- ثم لا أجد مكانًا واحدًا ، فى العالم كله ، لأنفق فيه ما لدى ، بعد أن تطاردنا كل الحكومات ، وتستهدف من كل الدول .

هتف (شامبليون) :

- كل تلك الدول ستصبح تحت سيطرتنا .. سنسير فيها كالملوك .

هتف (بارون) بدوره :

- وهذا هو الجزء الأحمق فى الأمر ..

انعقد حاجبا (بريماكوف) فى شدة ، وهو يقول :

- هل يعنى هذا أنك تنسحب من اللعبة كلها يا (بارون) ؟!

أجابه الإسرائيلى فى صرامة :

- بل يعنى أننى لا أرغب فى المشاركة ، فى أكثر خطط الدنيا حماقة أيها الروسى .

قالت (سونيا) فى صرامة شديدة :

- وهل تعتقد أن الانسحاب أمر سهل يا (بارون) ؟!

هز رأسه نفيًا فى بطء ، وهو يقول :

- كلا يا عزيزتى (سونيا) .. الانسحاب ليس سهلاً بالتأكيد ، فأنتم لن تسمحوا لشخص يعرف كل أسراركم بالانسحاب ، فى هذه المرحلة بالذات .

قالت بابتسامة شرسة :

- جميل أنك تدرك هذا .

ارتسمت على شفتيه ابتسامة مماثلة ، وهو يقول :

- نعم .. أدركه جيدًا ياعزيزتى (سونيا) .

ثم مال نحوها ، مستطردًا فى صرامة :

- لقد اتخذت كل الاحتياطات اللازمة تجاه هذه الخطوة .

تبادل (بريماكوف) و (شامبليون) نظرة شديدة العصبية ، مع قوله هذا ، فى حين رددت (سونيا) ، فى حذر عصبى :

- احتياطات ؟!

أجابها فى سخرية :

- نعم يا عزيزتى .. الاحتياطات التى تكفى لكشف كل ما يتعلق بكم ، للمصريين والإسرائيليين والأمريكيين ، خلال ساعة واحدة ، لو أصابنى أدنى مكروه هنا .

هتفت فى غضب :

- أيها الوغد .

أطلق ضحكة ساخرة واثقة ، وهو يقول :

- وغد بالفعل يا عزيزتي (سونيا) ، ولكن الأوغاد وحدهم يفوزون ، في عالمنا هذا .. الأوغاد وحدهم يربحون كل شيء .. وأنتم خير دليل على هذا .

ثم التقط من جيبه جهازًا صغيرًا ، يحوي زرًا واحدًا ، وهو يتابع :

- هل ترون هذا الجهاز البسيط ؟! إنه وسيلة الإبقاء عليكم .. ففي كل ساعة ، ينبغي أن أضغط هذا الزر مرة واحدة ، بوسيلة خاصة جدًا ، ولو لم أفعل ، أو تجاوز الأمر ساعتين كاملتين ، دون إرسال الإشارة المتفق عليها ، سيقوم شريك لي بإرسال كل ما زودته به من معلومات عنكم ، إلى المخابرات المصرية ، والأمريكية ، والإسرائيلية على الفور .

ارتسمت ابتسامة عجيبة على شفتي (سونيا) ، وهي تقول :

- جميل منك أن أوضحت ، يا عزيزي (بارون) .

لم ترق له ابتسامتها ..

بل ولم يشعر بأدنى قدر من الارتياح نحوها ..

وخاصة عندما تناهت إلى مسامعه تلك الخطوة الخافتة الحذرة من خلفه ..

وبسرعة مدهشة ، انتزع مسدسه من حزامه ، واستدار يواجه (رونالدو) ، الذي يتسلل خلفه بمسدس ضخم ، وهو يهتف في غضب :

- ألم أقل لكم إنكم أوغاد ؟!

ومع آخر حروف كلمته ، دوت الرصاصة ..

رصاصة قوية ، تردد دويها في الحجرة كلها ، وانتفض معها جسد (رونالدو) في قوة ، وهو يحدق في (بارون) ..

أما (بارون) نفسه ، فقد اتسعت عيناه عن آخرهما ، وارتجفت يده الممسكة بالمسدس ، ثم تفجرت فجأة بقعة كبيرة من الدم ، في منتصف جبهته تمامًا ، قبل أن يسقط عند قدمي (رونالدو) جثة هامدة ..

وفى وحشية صارمة ، أعادت (سونيا) مسدسها الصغير إلى جيبها ، وهى تقول :

- إنك لم تكن تستحق الحلم يا (بزوانيلى) .

حدق (شامبليون) فى الثقب الكبير ، الذى تتدفق منه الدماء فى غزارة ، من مؤخرة رأس (بارون) ، قبل أن يهتف :

- ولكن ماذا عن تلك الإشارة ؟!

أجابته فى صرامة :

- كل إشارة تنطلق من هنا ، يتمّ رصدها وتسجيلها ، ولقد رصدنا إشارته المنتظمة بالفعل ، وكنا نبحث عن مطلقها ، وهى مسجّلة فى أحدث أجهزة لدينا ، ويمكننا إعادة إطلاقها ، فى مواعيدها المنتظمة .

ثم انعقد حاجباها فى صرامة شديدة ، مضيفة :

- كل شىء هنا معد بإتقان تام ، لن يفسده هذا الوغد قط ..

ورفعت عينيها إلى (رونالدو) ، قائلة بلهجة آمرة :

- أبعد هذه القمامة عن هنا .

أجابها فى سرعة :

- بالطبع يا سيّدتى .. بالطبع .

وأسرع يرفع جثة (بارون) ، والجنرال الروسى يتابعه ، قائلاً فى لهجة تحمل جذلاً عجيباً :

- لم أشعر بالثقة تجاهه قط .

غمغمت (سونيا) :

- كان يمكن أن يضيف إلينا الكثير .

لم تكد تتمّ عبارتها ، حتى صدر أزيز قوى متصل من أحد أجهزة المراقبة ، فاستدار الجميع إليه ، وهتف الروسى فى حنق :

- إنه ذلك المصرى ثانية .

انعقد حاجبا (سونيا) ، وهى تراقب ما تنقله الشاشة ، من حجرة (أدهم) ، عبر كاميرا المراقبة الإضافية ، وغمغمت فى حذر شديد العصبية :

- ماذا أصابه هذه المرة ؟!

كان (أدهم) يبذل جهداً حقيقيًا ، لانتزاع جهاز الالتقاط الإليكترونى الدقيق ، من إطار الباب ، غير مبال

بعين المراقبة ، التى ترصد كل حركة من حركاته ، فأضافت (سونيا) فى توتر :

- هل يتصور أن بإمكانه هذا ؟!

لم تكد تنطقها ، حتى أضاء مصباح أحمر صغير ، فى جهاز المراقبة ، وتراجع (أدهم) بحركة حادة ، وهو يمسك طوق عنقه فى شدة ، فهتف (شامبليون) :

- لقد انطلق الطوق .

وغمغم (بريماكوف) بنفس الحذر :

- إنه يعتصر عنقه .

حدقت (سونيا) فى الشاشة ، بكل توتر الدنيا ، ورأت (أدهم) يسقط أرضاً ، وهو يجاهد لانتزاع ذلك الطوق ، أو إيقاف عمله ..

ويجاهد ..

ويجاهد ..

ثم ينهار تماماً ..

وبكل توترها ، هبت (سونيا) من مقعدها ، هاتفة :

- رباه ! لقد ...

وقبل أن تكمل عبارتها ، انطلقت تعدو عبر المكان ، صائحة :

- فرقة الطوارئ .. إلى الغرفة (X) فوراً .

كانت تعدو بكل قوتها ، وقلبها يخفق مرة أخرى بمنتهى العنف ..

هل أصابه مكروه هذه المرة ؟!

هل ؟!

وفى أعماقها ، امتزج جزعها بغضب هادر ، لم تدر كنهه تماماً .

لماذا تشعر بالخوف عليه إلى هذا الحد ؟!

لماذا ؟!

لماذا ؟!

إنه أكبر عدو لها ، منذ بدأت عملها هذا ..

بل أكبر عدو ، فى حياتها كلها ..

ولكنه ، فى الوقت ذاته ، الرجل الوحيد فى الدنيا كلها ، الذى خفق قلبها بحبه ..

والذى تزوجته ..

وأنجبت منه ابنها الوحيد ..

لعل هذا سر تضارب مشاعرها تجاهه ..

وتجاه نفسها ..

لعل هذا هو الذي يجعلها تسعى لقتله ، بكل ما تملك من قوة ، ثم تهرع لإنقاذه وإسعافه ، عندما يتعرّض لأدنى مكروه ..

ماذا أصابها ؟!

أي ضعف هذا ، الذي سيطر على كيانها كله ؟!

أي تخاذل ؟!

إنها ، وهي تعدو نحو زنزانته الآن ، تتمنى من كل قلبها أن يكون قد تجاوز هذه المحنة ..

ونجا ..

بلغت المكان ، في نفس اللحظة التي بلغته فيها فرقة الطوارئ ، ورأت قائدها يندفع نحو (أدهم) ، فهتفت به :

ـ أهو فاقد الوعي ، أم ..

لم تستطع إكمال عبارتها ، وهي تحدق في (أدهم) ، الذي سقط على وجهه ، على بعد متر واحد من الباب ، وقد التفت رقبته تحت كتفيه ، على نحو مخيف ، واحتقن وجهه بشكل عجيب ، وثبتت عيناه ، ومال ذراعه إلى جواره ، وكأنما لقي مصرعه ..

وبسرعة ، انحنى قائد فرقة الطوارئ ، والتقط معصم (أدهم) ، وراح يقيس نبضه في توتر ، فهتفت به (سونيا) :

ـ إنه فاقد الوعي .. أليس كذلك ؟!

انعقد حاجبا الرجل ، دون أن يجيب ، فصاحت به مكرّرة ، في عصبية فاقت كل الحدود :

ـ إنه فاقد الوعي .

رفع الرجل عينيه إليها ، مجيباً :

ـ لا يوجد أي نبض في معصمه .

اتسعت عيناها ، وهي تهتف :

ـ ماذا تعني ؟!



لم تستطع إكمال عبارتها ، وهي تحدق في (أدهم) ، الذي سقط على وجهه ، على بعد متر واحد من الباب ، وقد التوت رقبته تحت كتفيه ، على نحو مخيف ..

اعتدل ، مجيبًا في حزم متوتر :

ـ أعني أنه قد لقي مصرعه هذه المرة ..

وانتفض جسد (سونيا) في عنف ..

فالمفاجأة كانت مذهلة ..

بكل ما تحمله الكلمة من معان .

* * *

٤ - أقوى الرجال ..

فجأة ، انقبض قلب (منى) فى قوة ، ثم ترافص فى صدرها بعنف ، وهى تهتف :

- (أدهم) .

التفتت إليها دونا (كارولينا) فى دهشة ، متسائلة :

- ماذا عن (أدهم) ؟!

حدقت (منى) فيها بدهشة ، ووضعت كفها على صدرها ، وكأنما تحاول كتمان خفقات قلبها العنيفة ، قبل أن تغمغم :

- لقد شعرت لحظة ، وكأن ..

قاطعتها فى توتر :

- وكأن ماذا ؟!

عادت (منى) تحدق فيها ، وقد أطلت من عينيها حيرة أكبر ، وكأنما تعجز عن الإتيان بجواب مناسب ، ثم لم تلبث أن هزت رأسها فى قوة ، قائلة :

- لا عليك .. إنه مجرد انفعال .

لم يكن باستطاعتها قط أن تصف لأى مخلوق ، ما تشعر به ، فى تلك اللحظة بالذات ..

إنه شىء لا يدركه سواها ..

لا يمكن أن يدركه سواها ..

أو يفهمه غيرها ..

هذا لأنها وحدها تدرك طبيعة تلك الرابطة القوية ، التى تصل بينها وبينه ..

بين (أدهم) ..

حتى هى ، لا تدرى كنهها ..

ولم تخبر بها أحدًا قط ..

الرابطة التى تجعلها تشعر دومًا بكل ما يواجهه .. وما يعانيه ..

الرابطة التى أنبأتها طول الوقت ، أنه ما زال على قيد الحياة ..

هى نفسها التى جعلتها تشعر الآن بالاختناق ..

غصة عجيبة اعتصرت عنقها ، وحبست أنفاسها ، وكادت تنتزع روحها من جسدها ، فى لحظة واحدة ..

وهى واثقة من أن هذا قد انتقل إليها منه ..

حتى ولو كان فى آخر الدنيا ..

ومرة أخرى ، خفق قلبها فى عنف ..

وغصّ حلقها بمرارة بلا حدود ..

إنه يواجه خطرًا داهمًا حتمًا ..

خطر الموت ..

هذا هو ما تشعر به ..

ويملأ كل خلية من خلاياها ..

ويتغلغل فى كيانها حتى النخاع ..

« لا .. لا يمكننا أن نضيع المزيد من الوقت .. »

هتفت بالعبارة فى توتر بالغ ، فقلبت (كارولينا) كفيها ، قائلة :

ـ إننا نبذل قصارى جهدنا بالفعل .

هبّت (منى) من مقعدها ، هاتفة فى عصبية :

ـ حتى هذا لا يكفى .. صحيح أن رجالك يمدوننا بسيل من المعلومات ، فى كل دقيقة ، من كل بقاع الأرض ، ولكن من الواضح أن (سونيا) أفعى حقيقية ، تجيد إخفاء آثارها بدقة مدهشة ، والعثور عليها لن يكون بالأمر السهل ، وخاصة مع ذلك الوقت المحدود .

اعتدلت (كارولينا) فى مقعدها ، تسألها :

ـ ماذا تقترحين ؟!

انعقد حاجباها فى شدة ، وهى تجيب :

ـ لا بد أن نجد وسيلة جديدة ، أو نوجّه بحثنا إلى اتجاه لم نطرقه من قبل .

ثم ألقت نظرة على ساعتها ، مكملة فى عصبية :

ـ لم يعد أمامنا سوى أربع ساعات ونصف الساعة ، قبل أن تنفذ تلك الأفعى تهديدها ، وتحاول نسف السد العالى فى (مصر) .

تطلّعت إليها (كارولينا) لحظة فى صمت ، قبل أن تميل إلى الأمام ، قائلة :

- هل تعتقدين أن تلك المنظمة ، مهما بلغت قوتها ، قادرة بالفعل على القيام بهذا ؟!

صمتت (منى) بدورها بضع لحظات ، قبل أن تجيب في حزم :

- (مصر) التي أعرفها ، أقوى بكثير مما يتصوّر الجميع .. ولديها جيش قوي ، قادر على مواجهة أعتى الجيوش وأكبرها ، ونحن لم نعد نفتقر إلى التكنولوجيا والتمويل كالسابق .. ولكن المشكلة أننا نواجه هذه المرة عدواً مجهولاً غادراً ، يمتلك ويسيطر على أسلحة متقدمة للغاية ، تكفي لمباغتتنا بضربة حقيرة ، لا يعلم عواقبها إلا الله (سبحانه وتعالى) .

لوّحت (كارولينا) بيدها ، قائلة :

- ولكنكم من الطراز الذي لا يستسلم في سهولة .. لقد عهدتكم مقاتلين عنيدين .. على أرفع مستوى من الكفاءة والذكاء والقوة ، ولست أظن أبداً أن ضربة كهذه يمكن أن تهزمكم .

أجابتها (منى) في حزم :

- ولا ألف ضرب مثلها ..

ثم اكتسى صوتها بالأسى والمرارة ، وهي تضيف :

- ولكن ما ذنب ملايين البسطاء الآمنين ، الذين سيتعرضون للقتل والخراب والتدمير ، دون ذنب جنوه ؟! ما ذنب النساء والشيوخ والأطفال ، الذين ستراق دماؤهم دون جريرة ، سوى أنهم مصريون .

حدقت (كارولينا) في وجهها بدهشة ، مغمغمة :

- أهكذا تفكرون ؟!

ثم هزت رأسها ، مستطردة في احترام ، أسفر عن نفسه على لسانها في وضوح :

- هذا يفسّر تفوقكم وصلابتكم .

لم تكد تتم عبارتها ، حتى ارتفع رنين الهاتف الخاص ، المجاور لها ، فالتقطته بحركة سريعة ، وقالت في لهفة :

- دونا (كارولينا) شخصياً .

استمعت فى اهتمام واضح إلى محدثتها ، على نحو جعل قلب (منى) يعاود خفقانه ، وهى تتساءل فى أعماقها ، عما تحمله تلك المحادثة ..

وبسرعة ، أنهت (كارولينا) المحادثة ، ثم التفتت إليها ، قائلة فى حماس :

ـ يبدو أننا قد وقعنا على طرف الخيط .

انتفض قلب (منى) بين ضلوعها فى عنف ، وهى تهتف :

ـ حقاً ؟!

أومأت دونا (كارولينا) برأسها فى انفعال ، قبل أن تشير بيدها ، قائلة :

ـ الرجال استجوبوا أكبر متعهدى الأجهزة الطبية فى (كراكاس) ، عندما علموا أنه قد التقى بتلك الأفعى هناك ، ولقد بدا لهم ما أخبرهم به عديم القيمة فى البداية ، حتى أشار إلى محادثة هاتفية ، تلقتها (سونيا) ، عبر هاتفها الخلوى الخاص ، فى وجوده .

قالت (منى) فى توتر :

ـ ولكن (سونيا) لن تنطق بحرف واحد ، يمكن أن يكشف ولو لمحة من أسرارها ، فى حضور شخص آخر .

هتفت (كارولينا) :

ـ بالضبط .. ولهذا فقد تبادلت الحديث مع محدثتها بالعبرية ، باعتبار أن متعهّد الأجهزة الطبية يجهلها تماماً .

خفق قلب (منى) فى قوة ، وهى تسألها :

ـ وهل كان يعرفها ؟!

هزّت (كارولينا) رأسها نفياً ، وهى تجيب :

ـ كلمات قليلة للغاية ، التقطها من جار يهودى ، هاجر إلى (فنزويلا) ، منذ أكثر من ربع قرن .

ثم مالت إلى الأمام ، متابعة فى لهفة خاصة :

ـ وكل ما فهم من حوارها كلمتان فحسب .. الطيران .. وأقصى الشمال .

مرة أخرى ، انتفض قلب (منى) فى عنف ، واتسعت عيناها عن آخرهما ، وهى تردّد :

ـ أقصى الشمال ؟!

ثم وثبت إلى الخريطة ، التي فردتها فوق المائدة الكبيرة ، وهي تهتف :

ـ هذا يضعنا أمام خيار واحد .

وأشارت إلى أعلى الخريطة بسبابتها ، مستطردة في انفعال جارف :

ـ هنا .

ومع قولها ، خفق قلبها مرة أخرى في عنف .. بل في منتهى العنف ..

* * *

« ألاسكا .. »

نطق مدير المخابرات المصرية الكلمة في حزم ، وهو يشير إلى الخريطة الكبيرة ، التي تحتل جدارًا بأكمله ، في حجرة الاجتماعات الكبيرة ، في مبنى المخابرات العامة ، قبل أن يواجه رجاله ومعاونيه ، مستطردًا :

ـ هذا ما توصلت إليه زميلتكم (منى) ، التي تنطلق في هذه اللحظة بالتحديد إلى (جونو) العاصمة ، لتلحق برجلينا هناك (ياسر) و(أنور) .

قال أحد الرجال في توتر :

ـ (ألاسكا) ولاية واسعة للغاية يا سيدي ، والوقت يمضي بسرعة مخيفة ، وحتى لو نجحت (منى) مع زميلينا في كشف وكر المنظمة ، الذي نفترض وجوده هناك ، فستنتهي المهلة حتمًا قبل هذا بكثير .

أجابه المدير في حزم :

ـ لقد أبلغنا السلطات الأمريكية ما لدينا بالفعل ، وسيبدءون تحركهم على الفور .

مطَّ رجل آخر شفتيه ، مضيفًا :

ـ الأمريكيون ؟! لم أتصوَّر قط أن نستعين بهم في النهاية .

أجابه المدير في حزم :

ـ لو أن القاعدة المفترضة تقع بالفعل في (ألاسكا) ، فهي على أرضهم ، ووسط حدود سيادتهم الطبيعية *

يا رجل ، ومن حقهم دون سواهم تنشيط المنطقة ، والكشف عن كل ما تحويه .

ثم التقط نفسًا عميقًا ، قبل أن يضيف في توتر شديد :

ـ المهم أن يصلوا في الموعد المناسب .

غمغم أحد الرجال :

ـ نعم .. هذا هو المهم .

ثم أضاف في حسم :

ـ وهذا ينطبق على (ياسر) و(نور) و(منى) أيضًا .

ألقى المدير نظرة على ساعته ، وقال في توتر :

ـ رجالنا سيبذلون قصارى جهدهم ، وهذا ما نأمله ، وما تأمله القيادة السياسية أيضًا ، فلو لم يتم حسم الأمر ، خلال الساعات الثلاث القادمة ، سيصبح الخيار عسيرًا .. عسيرًا للغاية ..

تبادل الجميع نظرات صامتة ، ملؤها التوتر والقلق ، وكل منهم يطرد من ذهنه في عنف احتمال أن تضطر

(مصر) للخضوع ، وارتسمت في أذهانهم صورة السد العالي ، ذلك البناء الصامد الشامخ ، الذي يحمل تاريخ أمة قوية ، رفضت الانصياع يومًا للسيطرة الأجنبية ، والضغوط الغربية المستفزة(*) ..

أما مدير المخابرات ، فقد أضاف ذهنه إلى كل هذا سؤالًا آخر .

تُرى أين أنت الآن يا (ن ـ ١) ؟!

أين أنت ؟!

أين ؟!

* * *

(*) بضغوط من الولايات المتحدة الأمريكية ، سحب البنك الدولي موافقته على تمويل مشروع بناء السد العالي ، كمحاولة للضغط على (مصر) وقيادتها السياسية ، فما كان من الرئيس (جمال عبد الناصر) إلا أن أصدر قرارًا بتأميم الشركة العالمية لقناة (السويس) ، شركة مساهمة مصرية ، لتدبير التمويل اللازم ، مما أدى إلى العدوان الثلاثي على (مصر) ، من (انجلترا) ، و (فرنسا) ، و (إسرائيل) .

حدقت (سونيا جراهام) فى جسد (أدهم) المسجى أرضاً ، ووجهه المحتقن فى شدة ، وعينيه الثابتتين ، قبل أن تهتف بكل ارتياع الدنيا :

ـ مستحيل !

ثم قفزت من مكانها ، وانحنت تلتقط معصمه بدورها ، فى محاولة لقياس نبضه ..

واتسعت عيناها أكثر وأكثر ..

وكاد قلبها الحجرى يهوى بين قدميها ..

لقد كان قائد فرقة الطوارئ على حق ..

لا يوجد أى نبض فى معصم (أدهم) ..

لا يوجد أثر للحياة ..

وبكل لهفتها وتوترها ، صاحت :

ـ أوقفوا عمل الطوق .. أسرعوا ..

التقط قائد فرقة الطوارئ جهاز الاتصال من حزامه ، وهتف عبره :

ـ هل ترانى ؟! أنا (س ـ ١٠٧) .. أوقف بث جهاز تغذية الطوق على الفور .. أسرع .

ثم انحنى ، وأخرج من جيبه مفتاحاً فريد الشكل ، و (سونيا) تهتف به فى عصبية :

ـ هيا .. أسرع .. أسرع .

دس الرجل طرف المفتاح ، فى ثقب دقيق للغاية ، عند قاعدة الطوق الإليكترونى ، ثم جذب طرفيه ، فانفتح الطوق بصوت مكتوم ، وأسرع هو يرفعه عن عنق (أدهم) ، وهو يقول عبر جهاز الاتصال :

ـ أرسل منظم ضربات قلب بأقصى سرعة ، و ...

« لا داعى لهذا .. »

انتفض جسد (سونيا) فى عنف ، وقفزت متراجعة إلى الخلف بحركة غريزية ، عندما انطلقت تلك العبارة فجأة فى الحجرة ، بصوت ساخر مألوف ، وهتفت فى ارتياع مندهش مستنكر :

ـ مستحيل !

وقبل حتى أن تكتمل كلمتها ، كان (أدهم) يدور حول نفسه فى خفة مدهشة ، ويدفع ساقه إلى الأمام ، ثم يديرها فى الهواء إلى الخلف ، ليركل وجه قائد

فرقة الطوارئ وركلة كالقنبلة ، ألقت بهذا الأخير ثلاثة أمتار كاملة إلى الخلف ، ليرتطم بالجدار فى قوة ..

وكالبرق ، وثب (أدهم) واقفًا ..

وفى رشاقة مذهلة ، غاصت قبضته فى معدة أحد الرجال ، فى نفس اللحظة التى انفجرت فيها قبضته فى أنف ثان ، ثم دار جسده كله فى الهواء ، كمروحة عملاقة ، وركل رجلين فى آن واحد ، و (سونيا) تكرر ، بكل ذهول الدنيا :

ـ مستحيل ! مستحيل !

ثم انقضت فى عنف ، لتنتزع نفسها من ذهولها ، ووثبت تلتقط أحد المدافع الآلية ، التى سقطت مع القتال من الرجال ، و ..

وفجأة ، قبضت أصابع فولاذية على معصمها ، ولوت ذراعها خلف ظهرها بسرعة وقوة مدهشتين ، قبل أن يحيط ساعد كالصلب بعنقها ، ويهمس (أدهم) فى أذنها ، بكل سخرية الدنيا :

ـ ليس بهذه السرعة يا زوجتى السابقة .. دعينى أستمتع بقربك أولاً .

كان غضب هادر يتفجر ، فى كل ذرة من كيانها ، وهى تهتف :

ـ ولكن هذا مستحيل ! لقد كنت ميتًا .. أنا فحصتك بنفسى .

قهقه ضاحكًا فى سخرية ، وهو يقول :

ـ وهنا تكمن أفضل نقطة فى اللعبة كلها يا عزيزتى ..

ثم مال على أذنها ، متابعًا بنفس السخرية :

ـ هل تصورتم أننى قد أصبت بالجنون ، عندما رحت أحطم أثاث الحجرة كله ؟! كلا يا عزيزتى .. الواقع أننى فعلت ما فعلت ، لأحصل على قطعة من ذلك الأثاث فحسب .. قطعة مستديرة من المعدن ، فى حجم كرة تنس طاولة صغيرة .. هل تعلمين لماذا ؟!

عضت شفتيها فى غيظ ، دون أن تجيب ، وهى تقاوم لتتخلص من أصابعه القوية ، فتابع ساخرًا :

- إنها خدعة طبية طريفة ، كنت أعلم منذ تعلّمتها أننى أستطيع الاستفادة منها يومًا .. وهى بسيطة للغاية ، فعندما تضعين كرة صغيرة تحت إبطك ، وتضغطينها جيدًا بذراعك ، فإنها تضغط الضفيرة الإبطية ، وتعوق انتقال نبضات القلب إلى شرايين المعصم(*).

وأطلق ضحكة ساخرة أخرى ، ثم استطرد :

- ولكى تكتمل اللعبة ، كان لا بد أن أتظاهر بمحاولة انتزاع إحدى وحدات جهاز التحكم ، من إطار الباب ، أمام كاميرا المراقبة الحمقاء ، ثم أسقط أرضًا على نحو مدروس ، بحيث ينثنى عنقى بزاوية لا تسمح بفحص النبض من أوردته ، وتنثنى ذراعى اليسرى أسفل جسدى ، فلا يصبح أمامكم غير معصم اليد اليمنى ، الذى أعاقت الكرة وصول النبضات إليه ، لتفحصوه .. أضيفى إلى هذا كتمان أنفاسى ، حتى يحتقن وجهى بشدة ، ثم النظرة الجامدة الثابتة ، التى كانت أصعب ما فى اللعبة كلها .

(*) حقيقة .

وتضاعفت النبرة الساخرة فى صوته ، وهو يضيف :

- هل رأيت كيف جعلتكم ترفعون طوقكم السخيف عن عنقى بأيديكم ، يا أختى العزيزة ؟!

هتفت بكل غضب الدنيا :

- لا تفرح بانتصارك كثيرًا يا (أدهم) .. إنك ما زلت فى قبضتنا ، وكاميرا المراقبة سجلت كل ما حدث هنا ، وهذا يعنى أن طاقم الحراسة كله سيهرع إلى هنا ، خلال لحظات معدودة .

رفع حاجبيه فى دهشة مصطنعة ، وهو يقول ساخرًا :

- حقًا ؟! هذا يذكرنى بضرورة القيام بخطوة مهمة للغاية يا عزيزتى ..

قالها ، وركل أحد المدافع الآلية بقدمه ، فى خفة ومهارة مدهشتين ، ثم تخلّى عن عنقها ، ليلتقطه فى الهواء ، ثم يرفع فوهته نحو كاميرا المراقبة ، مضيفًا :

- أن ننهى البث .

وانطلقت رصاصاته تنسف كاميرا المراقبة ..

وفي حجرة المتابعة ، هتف (بريماكوف) في حنق :

ـ كنت أعلم هذا .. كنت أعلم أن الاحتفاظ بذلك المصري سيؤدي إلى مشكلات لا حصر لها .

ثم التفت إلى قائد إحدى فرق الحراسة ، وصاح به :

ـ اسمعني جيدًا يا رجل .. الأمر صار أخطر من كل ما كنا نتوقعه .. انس أية أوامر سابقة ، ونفذ أوامري على الفور، دون أدنى مناقشة .. هذا هو أملنا الوحيد في الخروج من هذا المأزق ..

ومال نحوه مستطردًا ، بكل حزم وصرامة الدنيا :

ـ اقتل ذلك المصري .. اقتلوه بأي ثمن .

تألقت عينا الرجل ، وهو يؤدي التحية العسكرية ، هاتفًا :

ـ أمرك يا جنرال .

ثم انطلق مع رجاله لتنفيذ الأمر ..

وللقضاء على الرجل ..

رجل المستحيل ..

* * *

« لن يفلح هذا قط .. لن يفلح أبدًا .. »

هتفت (سونيا) بالعبارة في غضب ساخط هادر ، و (أدهم) يدفعها أمامه ، عبر ممر الزنزانة ، إلى الباب الخارجي ، في غلظة لم تعتدها منه قط ، إلا أنه تجاهل كل هذا الغضب ، قائلًا في صرامة :

ـ علينا أن نسعى ، وليس علينا بلوغ النجاح يا عزيزتي .

هتفت :

ـ لن يمكنك أن تبلغ النجاح .. ليس هذه المرة .. وليس حتى لو استطعت الخروج من هنا حيًا .. إننا سننسف السد العالي نفسه ، خلال أقل من أربع ساعات .

انعقد حاجباه ، وهو يقول :

ـ السد العالي ؟! لا ريب في أنكم قد جننتم تمامًا ..

أطلقت ضحكة عصبية عالية ، وهو يدفعها أمامه ، وصاحت :

ـ بل لقد تفوقنا على أنفسنا ، على نحو لن يمكنك

حتى استيعابه .. إننا نمتلك الآن غواصة نووية روسية ، وأقوى نفاثة مقاتلة أمريكية ، وناقلة بترول مصرية بكامل طاقمها ، وباخرة أسلحة بكل عدتها وعتادها ، ونسيطر الآن على أحد أقمار مشروع حرب النجوم أيضًا ، وبه سننسف جسم سدكم ، حتى ولو خضعتم لكل شروطنا .

دفعها أمامه بغلظة أكبر ، وهو يهتف :

ـ ومن سيسمح لكم بهذا ؟!

صاحت بكل الغضب :

ـ ومن ينتظر السماح والرفض ؟!

لم تكد تتم عبارتها ، حتى ظهر طاقم الحراسة الأول في المكان ..

أكثر من عشرة رجال ، يحملون المدافع الآلية القوية ، برزوا فجأة ، وكل فوهات مدافعهم مصوّبة إليه ..

وبكل الحزم والصرامة ، هتف قائدهم :

ـ استسلم أيها المصري ، وإلا ..

قاطعه (أدهم) في سخرية ، وهو يلوي ذراع (سونيا) أكثر :

ـ وإلا ماذا يا هذا ؟! هل ستطلقون النار على زعيمتكم ؟!

بدا التوتر على وجوههم جميعًا ، فصاحت (سونيا) :

ـ أطلقوا النار عليه مباشرة .. إنني أفضّل الموت .

ثم أضافت في عصبية شديدة :

ـ على الأقل سنموت معًا يا (أدهم) .

غمغم ساخرًا :

ـ يا لها من ميتة شاعرية يا عزيزتي !

جذب الرجال إبرات مدافعهم في توتر، ولكن أحدهم لم يحاول ضغط زناد مدفعه ، وهم يصوبون أسلحتهم ، في تحفز كامل ، نحو (أدهم) و(سونيا) ، فغمغم الأول :

ـ أرأيت يا عزيزتي .. لن يجازفوا بحياتك قط .

مع آخر حروف كلماته ، برز طاقم الحراسة الثانى فجأة ، وارتفع صوت الجنرال (بريماكوف) ، عبر كل مكبرات الصوت ، وهو يهتف :

ـ لا تقيموا وزناً لأية تضحيات .. اقتلوا المصرى ، مهما كان الثمن .. هل تفهمون ؟! مهما كان الثمن .

واستوعب الجميع ما يعنيه ..

وهتفت (سونيا) فى غضب :

ـ أيها الوغد ..

وارتفعت فوهات المدافع الآلية بتحفز أكبر ، و ..

ودوت الرصاصات ..

بمنتهى القوة ..

* * *

٥ ـ الروسى ..

احتقن وجه وزير الدفاع الأمريكى بشدة ، وهو يطالع البرقية الشفرية ، التى سلمه إياها السفير المصرى للمرة الرابعة ، قبل أن يغمغم فى عصبية واضحة :

ـ إذن فأنتم تعتقدون أنكم قد توصلتم إلى المقر السرى لتلك المنظمة .

هزّ السفير المصرى رأسه فى وقار ، وقال فى هدوء حاسم :

ـ لسنا نعتقد يا سيادة الوزير .. إننا واثقون .

زاد احتقان وجه وزير الدفاع الأمريكى ، وهو يلقى نظرة أخرى على البرقية ، متسائلاً فى حنق :

ـ وكيف فعلتم هذا ؟!

شدّ السفير قامته ، قائلاً :

- لنا وسائلنا .

قال الأمريكى فى حدة :

- التى لن تفصحوا عنها قط .. أليس كذلك ؟!
يلوح لى أننى قد سمعت هذه العبارة ، منذ ساعات قليلة .

هزّ السفير رأسه ، وهو يقول فى صرامة :

- ربما يا سيادة الوزير ، ولكن هذا ليس المهم الآن .. إننا نواجه جميعًا خطرًا واحدًا ، وربما لأول مرة ، فى التاريخ المعروف ، وبدلاً من أن نضيع الوقت ، فى معركة من منا أكثر حنكة وقوة ، فالأفضل أن نشحذ جهودنا لمواجهته معًا ، دون الدخول فى صراعات جانبية سخيفة .

عضّ الوزير الأمريكى شفتيه ، قائلاً :

- ربما كنت على حق .

ثم مدّ يده يصافحه ، مستطردًا :

- سأعرض الأمر على الرئيس فورًا ، وأعدكم أن نتخذ الإجراءات المناسبة ، فى أسرع وقت ممكن ، و ...

قاطعه السفير المصرى فى صرامة غير متوقعة :

- خلال ساعة واحدة أيها الوزير .

عاد وجه الوزير الأمريكى يحتقن فى شدة ، وهو يحدق فى وجهه باستنكار شديد ، قبل أن يهتف غاضبًا :

- كيف تتحدث إلىّ بهذا الأسلوب ؟! ألا تدرك من أنا ؟! أنا وزير دفاع الولايات المتحدة الأمريكية .. أقوى دولة فى العالم أجمع ، وزعيمة النظام الدولى الجديد .

قال السفير المصرى فى حدة :

- فلتتصرّف بما يمليه موقفك ومنصبك إذن ، وليس كمراهق متغطرس ، يتباهى ويزهو بقوته ، وحاول أن تدرك حساسية موقفنا ، ومحاولتنا الحفاظ على هيبتكم وكرامتكم ، أمام ذلك النظام العالمى الجديد ، الذى تفخرون بزعامته .. إننا نواجه الخطر الأعظم الآن .. بنيتنا الأساسية كلها مهدّدة ، من تلك المنظمة الخطيرة ، وكل دقيقة لها ثمنها الآن ، وأنتم تريدون مناقشة الأمر لساعات وساعات ، قبل اتخاذ القرار .

صاح الوزير الأمريكي :

ـ لابد أن نتيقن من الهدف أولاً .. لا يمكننا أن نهدر أموال دافعي الضرائب دون مبرر .

هتف السفير المصري في غضب :

ـ وماذا عن أرواح ملايين المصريين ، المهددين بالموت ، مع انهيار جسم السد ؟! أأنتم مستعدون لإهدارها هكذا ، بكل هدوء وبساطة ، حفاظًا على أموال دافعي الضرائب الأمريكيين ؟!

انعقد حاجبا الوزير ، دون أن ينبس ببنت شفة ، فتابع السفير المصري في صرامة غاضبة :

ـ اسمعني جيدًا أيها الوزير .. ربما تكونون أقوى دولة في العالم ، ولكننا لسنا بالضعفاء ، وربما تخشون إهدار أموال دافعي الضرائب ، ولكننا سنبذل أرواحنا لو لزم الأمر ، حتى لا تهدر قطرة دم مصرية بريئة واحدة ، ولتعلم أن رجالنا في قلب (ألاسكا) الآن ، وبإشارة واحدة منا ، يمكنهم بدء الهجوم فورًا .

انتفض الوزير ، وهو يهتف في استنكار :

ـ على أرض أمريكية ؟!

أجابه بصرامة أكثر :

ـ وعلى القمر نفسه ، لو اقتضى الأمر .

ثم عاد يلتقط قامته ، مستطردًا في حزم :

ـ وستنطلق إشارة البدء ، خلال ساعة واحدة ، سواء أقمتم بواجبكم أم لا .

قالها ، واستدار يغادر المكان برأس منتصبة ، وهامة عالية ، فصاح الوزير الأمريكي خلفه ، بكل غضب الدنيا :

ـ هذا الإنذار يمكن اعتباره إعلان حرب .. لا يمكنكم توجيهه إلينا رسميًا .. هل نسيتم أنكم تحصلون على معونات سنوية منا ؟! هل نسيتم هذا ؟!

لم يجب السفير المصري ، وهو يغادر المكان كله ، ويغلق الباب خلفه في هدوء ..

وبكل غضبه وثورته ، اندفع الوزير الأمريكي عبر ممرات البيت الأبيض ، حتى بلغ حجرة الرئيس ، فهتف في عصبية زائدة :

- المصريون يقولون : إنهم قد توصّلوا إلى المقر السرى لتلك المنظمة .

عضّ الرئيس الأمريكي شفتيه ، وقال في حنق واضح :

- عظيم .. هذا يجعلنا في آخر القائمة .

سأله الوزير في دهشة :

- آخر القائمة ؟! ماذا تعني ياسيادة الرئيس ؟!

ألقى إليه الرئيس برقية طويلة ، وهو يقول ساخطًا :

- الروس أرسلوا إلينا خطة تدمير القمر الصناعي ، الخاص بمشروع حرب النجوم ، مع تفاصيل فنية دقيقة للغاية ، تشفّ عن معرفتهم بكل تفاصيل المشروع ، الذي كنا نتصوّره غاية في السرية .

امتقع وجه الوزير ، وهو يهتف :

- يا إلهي ! يا إلهي !

تابع الرئيس :

- ليس هذا فحسب ، ولكنهم يخبروننا أيضًا ، بمنتهى الثقة والتأكيد ، أنهم قد توصّلوا إلى أن المقر السرى لمنظمة (إكس) يقبع في مكان ما من ولاية (ألاسكا) .

وكاد الوزير يقفز من مكانه ، من فرط التوتر والانفعال ..

فالساعة الأخيرة ، حطمت كل ما يؤمن به ، من قوة وتفوق الولايات المتحدة الأمريكية ، زعيمة النظام العالمي الجديد ..

ولكن السؤال الذي يكاد ينسف رأسه نسفًا هو كيف ؟!

كيف توصّل المصريون والروس إلى ذلك المقر السرى ؟!

كيف ؟!

كيف ؟!

* * *

على الرغم من أن (سونيا جراهام) هى العدو اللدود لـ (أدهم صبرى)، منذ أول لحظة التقيا فيها(*)، إلا أن طبيعته الشخصية كانت تأبى عليه أن يحتمى بامرأة ..

مهما كانت الظروف ..

ومهما كان الثمن ..

لذا، فما إن ارتفعت فوهات المدافع الآلية فى وجهيهما، حتى دفعها جانباً بكل قوته، وهو يقول فى صرامة :

- ابتعدى .

أطلقت شهقة قوية، وهى تسقط أرضاً، وتتدحرج مبتعدة، فى حين رفع هو فوهة مدفعه فى حزم، ليواجه خصومه ..

كان أمامه عشرون رجلاً من رجال منظمة (إكس)، بزيهم الرسمى الأسود، الذى يحمل جيبه تلك الدائرة البيضاء، وبداخلها حرف (X) الأحمر ..

(*) راجع قصة (أبواب الجحيم) .. المغامرة رقم (١٩)



فما إن ارتفعت فوهات المدافع الآلية فى وجهيهما، حتى دفعها جانباً بكل قوته، وهو يقول فى صرامة : - ابتعدى !

وبمدافعهم القوية ..

وشراستهم التى بلغت ذروتها ..

وبكل المقاييس ، كان من المحتم أن يخسر (أدهم) المعركة ..

صحيح أنه أيضاً مقاتل شرس ، لا يشق له غبار ..

ولكن القاعدة ثابتة دوماً ، فى كل الأحوال ..

الكثرة تغلب الشجاعة ..

فمهما بلغت قوته وبراعته ، لن يمكنه أبداً هزيمة عشرين مقاتلاً ، فى ساحة مكشوفة كهذه ..

ولكن حتى هذا لم يدفعه إلى التراجع ..

أو الاستسلام ..

فبالنسبة لرجل مثله ، كان الموت هو الخيار الأفضل ..

والأكثر حفظاً للكرامة ..

لذا ، فقد رفع فوهة مدفعه بكل حزم وصرامة الدنيا ، وعلى الرغم من الدماء ، التى عادت تنزف من جراحه بغزارة ..

وانطلق دوى الرصاصات ..

بمنتهى العنف ..

ولكن الرصاصات نفسها لم تنطلق من مدفع (أدهم) ..

ولا حتى من مدافع رجال المنظمة ..

لقد انطلقت من مصدر آخر ..

مصدر راح يحصد رجال منظمة (إكس) ، بلا شفقة أو رحمة ..

وكانت مفاجأة مذهلة ..

للجميع ..

ففى لحظة واحدة ، انهالت الرصاصات على الرجال كالمطر ، فسقط بعضهم صرعى المفاجأة ، فى حين استدار البعض الآخر لمواجهة ذلك المقاتل الجديد ..

وفى دهشة حقيقية ، غمغم (أدهم) :

ـ مستحيل ! من كان يتوقع هذا ؟!

أما (سونيا) ، فقد حدقت فى ذلك القادم ، الذى سحق اثنى عشر رجلاً من رجال المنظمة ، مع الضربة الأولى ، وراح يقاتل الآخرين فى مهارة مدهشة ، من خلف حاجز واق ، وغمغمت :

- ماذا حدث ؟! هل كشف الجميع أمرنا ؟!

قالتها ، ثم تدحرجت مبتعدة مرة أخرى ، ووثبت عبر باب صغير ، ثم أغلقته خلفها فى إحكام ، هاتفة بكل حنق الدنيا :

- مستحيل ! لا يمكن أن نخسر ، بعد كل هذا !

فى نفس اللحظة ، التى نطقت فيها عبارتها ، كان (أدهم) يندفع لمؤازرة المقاتل الجديد ، وهو يهتف فى حزم :

- كفى نيرانًا .. لقد هزمناهم بالفعل .

نطقها ، وهو يهوى بقبضته على فك أقرب رجال المنظمة إليه ، ثم يدور حول نفسه ، ليركل رجلاً آخر ، قبل أن يهتف ثانية :

- كفى نيرانًا .

رفع المقاتل الآخر سبابته عن زناد مدفعه الآلى القصير ، وألقى نظرة باردة كالثلج على بحيرة الدم ، التى غرق فيها رجال المنظمة ، باستثناء الرجلين ، اللذين أسقطهما (أدهم) بضرباته ، وقال بالروسية :

- أهلاً أيها الرفيق المصرى .. جميل أن ألتقى بك ، فى ظروف كهذه .

تطلّع إليه (أدهم) فى صمت ، وقال بالروسية :

- أعتقد أننى أكثر سعادة بلقائك يا عزيزى (كوربوف) ، ولكن دعنى أسألك .. كيف وصلت إلى هذا المكان ، الذى يفترض كونه مقرًا سريًا لتلك المنظمة ؟!

ابتسم (سيرجى كوربوف) ، وهو يخفض فوهة مدفعه ، قائلاً :

- إنها قصة طويلة .

ثم أشار بيده ، متابعًا فى صرامة :

- أتلك التى لمحتها معك هى (سونيا جراهام) ؟!

أومأ (أدهم) برأسه إيجابًا ، وهو يتطلّع إلى الباب ، الذى اختفت خلفه (سونيا) قائلاً :

- هى بعينها .

ثم عاد يلتفت إليه ، متابعًا :

- واختلافها يعنى أن الخطر الذى نواجهه هنا سيتضاعف .. ألف مرة على الأقل .

قال (سيرجى) فى صرامة باردة :

- هذا لا يهم .

ثم شدّ قامته ، متابعًا بلهجته الروسية الجافة :

- دولتى تعلم الآن أننى هنا ، فى قلب (ألاسكا) ، ولكنهم لا يستطيعون تحديد موقع المقر السرى هذا بالضبط ، لأن كل الإشارات تُحتجز داخل المكان ، باستثناء تلك التى يتم بثها عبر برج إرسال سرى خاص ، يبدو من الخارج أشبه ببروز ثلجى عادى .

قال (أدهم) فى هدوء شديد ، وكأنهما يتحدثان على مقعدين وثيرين ، على كورنيش النيل فى (القاهرة) :

- إذن فمن الضرورى أن نبلغ حجرة التحكّم فى برج الاتصال السرى هذا ، حتى يمكننا إرسال إشارة منتظمة ، يمكن لدولتك ودولتى تتبعها إلى هنا .

أجابه (سيرجى) ببروده التقليدى :

- بالضبط .

ثم أشار إلى كاميرات المراقبة فى الساحة ، متابعًا :

- ولن يكون هذا سهلاً بالتأكيد ، فهم لن يسمحوا لنا أبدًا .

هزّ (أدهم) كتفيه بلا مبالاة ، وقال فى هدوء شديد ، وبلهجة ساخرة للغاية :

- ومن سيطلب إذنهم ؟!

أشار إليه (سيرجى) ، قائلاً :

- إنك مصاب بشدة .

هزّ (أدهم) كتفيه مرة أخرى ، قائلاً :

- تظاهر بأنك لم تر أية إصابات .

ثم مال نحوه ، وابتسم ، مستطردًا :

- وأخبرنى أولاً .. كيف وصلت إلى هنا ؟!

انتفخت أوداج (سيرجى كوربوف) ، وهو يقول :

- لدينا أساليبنا .

ثم أطبق شفتيه ، ولم يزد حرفاً واحداً ..

فالواقع أن الخطة ، التي أتت به إلى ذلك الوكر السري ، لم يكن من الممكن الإفصاح عنها قط ..

هذا لأنها خطة بالغة السرية ..

وبالغة الجنون ..

إلى حد مدهش ..

* * *

ثوان قليلة ، ويتم نسف السفينة الروسية ..

وبكل قوته وسرعته ، راح (سيرجي كوربوف) يعدو ، نحو كابينة خاصة في القاع ..

كابينة مغلقة ، لم يجرؤ شخص واحد على الاقتراب منها ، منذ بدأت الرحلة ..

وفي الغواصة النووية ، كان العد التنازلي لإطلاق الطوربيد يتواصل ..

ويتواصل ..

ويتواصل ..

و (سيرجي) يعدو ..

ويعدو ..

ويعدو ..

وعندما بلغ تلك الكابينة الخاصة في القاع ، كان يلهث بشدة ..

ولكنه لم يتوقف ..

لقد أخرج من جيبه مفتاحاً خاصاً ، دفع به في فجوة مناسبة تماماً ، في باب الكابينة ، ثم ألصق راحته اليسرى بجزء زجاجي منها ، وهو يدير المفتاح في قوة ..

وأضاء ذلك الجزء الزجاجي لحظة ، التقط خلالها صورة لبصمة راحته ، وقارنها كمبيوتر صغير بالبصمة المسجلة لديه ..

ثم انفتح الباب دفعة واحدة ..

ودون لحظة واحدة من التردد ، وثب (سيرجي) داخل الكابينة الخاصة ، وضغط عدة أزرار في لوح

قيادة داخلها ، في تتابع سريع مدروس ، في نفس اللحظة التي قال فيها الجنرال (بريماكوف) لرجاله ، داخل الغواصة النووية ، بلهجة جذلة ، آمرة ، وحشية :

- أطلق .

وانطلق الطوربيد ..

وراح ينطلق نحو السفينة الروسية مباشرة ..

وضغط (سيرجي) زراً أخيراً ..

ودوى الانفجار ..

وفي نفس اللحظة ، التي أصاب فيها الطوربيد جسم السفينة ، كانت الكابينة ، التي يجلس داخلها (سيرجي) ، والتي لا تكاد تحوي جسده ، تنسف قاع السفينة تحتها تماماً ، وتنطلق عبره إلى الأعماق ..

كان التغير في الضغط مفاجئاً وعنيفاً ، حتى إن (سيرجي) قد أطلق شهقة قوية ، من أعمق أعماق صدره ، وشعر وكأن الكابينة الصغيرة تضيق حول جسده ، قبل أن تتوقف ، ثم تندفع تحت الماء بسرعة مذهلة ..

كانت مصنوعة من الألياف الزجاجية ، بإتقان يفوق المعتاد ، من المنتجات الروسية ، ومزودة بمجسات خاصة في قمتها ، كل مهمتها أن تلتقط نبضات الغواصة النووية ..

وأن تتبعها كظلها ..

ولأن جسمها مصنوع بالكامل من الألياف الزجاجية ، دون قطعة معدن واحدة ..

ولأن حجمها صغير إلى أقل حد ممكن ، كان من العسير ، إن لم يكن من المستحيل ، أن تلتقطها أجهزة السونار بالغواصة ..

وحتى لو أمكنها التقاطها ، ستبدو للمراقبين وكأنها واحدة من أسماك المحيط الضخمة ..

محيط الدم ..

ولقد كانت الرحلة طويلة بحق ..

ومرهقة ..

إلى أقصى حد ..

ولكن الغواصة النووية الروسية بلغت مستقرها فى النهاية ، وانطلقت عبر نفق جليدى ضخم ، إلى بحيرة صناعية ، داخل ذلك الوكر السرى ، وسط جليد (ألاسكا) ..

وبفضل تلك المجسات الدقيقة ، تبعتها الكابينة ..

ثم استقرّت أسفلها تماماً ..

ولدقائق طويلة ، ظلّ (سيرجى كوربوف) قابعاً ، داخل الكابينة الصغيرة ، حتى اطمأن إلى أن أحداً لم يكشف أمره ، ثم ارتدى غلالة بلاستيكية رقيقة ، وضغط زراً آخر ، فانفتح قاع الكابينة ، ووجد نفسه يغوص فى الماء البارد ..

كان الماء بارداً كالثلج ، ولكنه احتمله ، وضرب بذراعيه فى قوة ، ليصعد إلى السطح ، حيث كان المكان خالياً ، إلا من حارس واحد ..

الحارس الذى كان يحمل ذلك المدفع الآلى ، الذى يحمله (سيرجى) الآن ..

كانت المنظمة تشعر بالثقة الشديدة ، حتى إنها لم تترك سواه ، لحراسة الغواصة النووية ، داخل تلك البحيرة الصناعية ، فى قلب المقر السرى ..

ولقد تعامل معه (سيرجى) بمنتهى القوة ..

والعنف ..

والقسوة ..

و ...

« إنهم يغلقون كل الأبواب .. »

نطق (أدهم) العبارة فى حزم ، فانتزع (سيرجى كوربوف) من أفكاره ، وجعله يسأل بنفس البرود :

ـ ماذا تعنى بأنهم يغلقون كل الأبواب ؟!

أشار (أدهم) بيده إلى حاجز من الصلب ، يهبط أمام آخر مداخل الساحة ، وهو يقول بنفس الحزم :

ـ أخبرنى أنت ما يعنيه هذا .

وانعقد حاجبا الروسى الكثّان ، دون أن ينبس ببنت شفة ..

وفى نفس اللحظة ، كانت (سونيا) تكاد تشتعل غضبًا ، داخل حجرة المتابعة ، وهى تهتف برجال المنظمة :

ـ أغلقوا كل المداخل والمخارج ، واقطعوا كل الاتصالات عن تلك الساحة .. لا أريدهما أن يجدا ثقب إبرة للخروج منها .

ثم استدارت إلى رجل آخر ، صائحة :

ـ أرسل إنذارًا جديدًا إلى المصريين .. أخبرهم أننا قد اختصرنا المهلة إلى ثلاث ساعات فحسب ، وهذا يعنى أن أمامهم ساعة واحدة ، قبل أن ننسف سدهم .

هتف (شامبليون) فى عصبية :

ـ ساعة واحدة ؟! ولكن توجيه القمر يحتاج إلى ثلاث ساعات على الأقل .

اندفعت نحو أجهزة التوجيه ، وهى تقول فى صرامة :

ـ ليس بالنسبة لى .

قالتها ، وراحت تضغط أزرار الأجهزة فى عصبية ، فتساءل (بريماكوف) فى حذر ، وبلهجة شديدة التوتر :

ـ ما هذا بالضبط ؟!

أجابته فى انفعال :

ـ برنامج للطوارئ .. سيدفع القمر إلى تعديل مساره واتجاهه ، خلال ساعة واحدة .. نفس البرنامج المعد ليستخدمه الأمريكيون ، فى ظروف مماثلة .

انعقد حاجباه فى شدة ، وهو يسألها :

ـ وكيف حصلت عليه ؟!

أجابته فى صرامة ، وهى تواصل إعداد البرنامج :

ـ لدى أساليبى .

هتف بها (شامبليون) فى حدة :

ـ وهل كنا نمتلكه منذ البداية ؟!

أومأت برأسها إيجابًا ، فهتف فى غضب :

ـ لماذا لم نستخدمه إذن ؟!

ضغطت الزر الأخير ، واعتدلت تراقب شاشة الكمبيوتر ، لتتأكد من أن البرنامج قد بدأ عمله بالفعل ، قبل أن تجيب فى صرامة :

ـ إنه برنامج طوارئ فحسب ، ونسبة المخاطرة فيه عالية .

سألها (بريماكوف) ، فى غضب مكتوم :

ـ أية مخاطر ؟!

أجابته بنفس الصرامة :

ـ أن يختل القمر ويفقد توازنه ، وبالتالى مساره .

سألها (شامبليون) فى حدة :

ـ وهل يعلم مستر (X) هذا ؟!

انعقد حاجباها فى شدة ، وهى تجيب :

ـ بالطبع .

قال (بريماكوف) فى حدة مباغتة :

ـ لماذا لم يخبرنا إذن ؟!

ازداد انعقاد حاجبيها ، وهى تجيب فى عصبية :

ـ من المؤكد أن لديه أسبابه .

هتف (شامبليون) :

ـ ولماذا يختصك بكل تلك المعلومات ؟!

تفجّر غضب الدنيا فى ملامحها ، وهى تهتف :

ـ أهذا وقت مناقشات سخيفة كهذه ؟!

ثم استدارت إلى شاشة المراقبة ، مستطردة فى عصبية زائدة :

ـ هذان الرجلان قادران على تدمير كل ما صنعناه وحلمنا به .

واندفعت سبابتها نحو زر خاص ، وهى تكمل :

ـ إلا إذا ..

انعقد حاجبا (بريماكوف) ، وتبادل نظرة متوترة مع (شامبليون) ، قبل أن يقول فى عصبية :

ـ وما المفترض أن يفعله هذا ؟!

تراجعت ، وعقدت ساعديها أمام صدرها فى عصبية ، وهى تتطلّع فى توتر شديد إلى شاشة المراقبة ، قائلة بكل صرامة :

ـ سنرى .

فى نفس اللحظة ، التى نطقت فيها عبارتها ، كان (أدهم) و(سيرجى) يفحصان أحد الحواجز المعدنية السميكة ، التى أغلقت الساحة ، قبل أن يقول الأخير :

ـ من الواضح أنها أكثر قوة مما كنا نتصوّر .

جذب (أدهم) إبرة مدفعه ، وهو يقول :

ـ هل تعتقد هذا ؟!

فهم (سيرجى) ما يعنيه (أدهم) على الفور، فتراجع بدوره ، وجذب إبرة مدفعه ..

ثم راح الاثنان يطلقان رصاصاتهما ، نحو الحاجز الصلب بلا هوادة ..

وأصابت الرصاصات الغزيرة الحاجز ..

وارتدّت عنه فى عنف ..

دون حتى أن تخدشه ..

وفى توتر ، تلفّت (أدهم) حوله ، مغمغمًا :

ـ هناك حتمًا وسيلة للخروج من هنا .

لم يكد يتمّ عبارته ، حتى دوت فرقعة عنيفة فى المكان ..

ثم انفتحت ثلاثة نوافذ كبيرة ، فى أعلى جدران الساحة ..

ومن كل منها ، انهمرت أطنان من المياه الباردة كالثلج ..

وعندئذ فقط ، أدرك (بريماكوف) و(شامبليون) ما الذى ستفعله (سونيا جراهام) ..

لقد قررت أن تقضى على الرجلين داخل قبر خاص ..

قبر من ثلج .

* * *

٦ - تحت الصفر ..

« من المقاتلة (ف - ٢٠) إلى القاعدة .. لا توجد أية آثار ، توحي بوجود مقر سري أو غير سري ، في المنطقة بأسرها .. »

استقبل وزير الدفاع الأمريكي بنفسه النداء ، الصادر من رئيس سرب البحث ، الذي يحلق فوق (ألاسكا) ، فانعقد حاجباه في شدة ، وهو يقول في عصبية :

- تبًا لهؤلاء المصريين والروس .. هل يتصورون (ألاسكا) هذه مجرد قرية صغيرة ، يمكن لمقاتلاتنا كشف كل شبر فيها ، خلال ساعة واحدة ؟! إنهم حتى لم يخبرونا في أية بقعة منها ينبغي أن نبحث !

مطّ الرئيس الأمريكي شفتيه ، وقال :

- وماذا عن صور الأقمار الصناعية ؟!

لوّح الوزير بيده ، هاتفًا في حنق :

- إنه أمر أكثر صعوبة .. لقد استخدمنا كل ما لدينا من إمكانيات ، ولكننا لم نحصل سوى على آلاف الصور للجليد والثلوج والبحيرات المتجمدة ، في كل مكان ، حتى باستخدام التصوير المقرّب للغاية ..

غمغم الرئيس في سخط :

- وتقولون إن أقماركم قادرة على تحليل نسيج ثوب سباحة ، يرتديه سبّاح ، في أبعد بقاع العالم .

انعقد حاجبا الوزير ، وهو يقول :

- فخامتك تعلم أن هذا يندرج تحت بند الدعاية ، والضرورات اللازمة ، للتأثير على الرأي العام الأمريكي والعالمي ، ولكن الواقع أن ..

قاطعه الرئيس في حدة :

- ولكن لديكم إمكانيات متقدمة بالطبع .

هتف الوزير :

- بالطبع يا سيادة الرئيس .. أقمارنا قادرة على تعقب قرد يعدو ، وسط زحام (نيويورك) ، دون أن تفقد أثره ، ولو لحظة واحدة .

قال الرئيس فى صرامة :

ـ عظيم .. حاول أن تستخدم تلك الإمكانيات المبهرة إذن ، لتبحث عن أى أثر وسط الجليد .. إننى أشعر بالعار؛ لأن المصريين والروس سبقونا إلى كشف موقع تلك القاعدة ، ولابد أن نثبت لهم تفوّقنا ، بالعثور عليها وسحقها سحقًا ، قبل أن يبلغها أيهما ، وإلا فسنفقد هيبتنا وسيطرتنا إلى الأبد .

قال الوزير ، فى شىء من العصبية :

ـ إننا نبذل قصارى جهدنا ، ولكن الوقت أضيق مما ينبغى .. لقد فكرنا حتى فى إرسال قوات من المشاة أو المدرعات ، لفحص الجزء الشمالى من (ألاسكا) ، ولكنها مساحة هائلة كما تعلم ، ولابد من وجود دليل يشير إلى بقعة بعينها ، وإلا فسنحتاج إلى أسبوع كامل على الأقل ، لتمشيط المنطقة كلها .

هتف الرئيس فى استنكار :

ـ سبعة أيام ؟! ليس لدينا حتى سبع ساعات .. ألم تصلك آخر الأخبار . تلك المنظمة اللعينة اختصرت المهلة التى منحتها للمصريين .. اختصرتها بحيث

لم يتبق منها سوى ساعة واحدة ، وبعدها سينسفون مدنهم ، باستخدام قمرنا نفسه .

احتقن وجه الوزير الأمريكى ، وهو يقول فى انفعال :

ـ فليذهب المصريون ومدنهم إلى الجحيم .. لن نبنى خططنا من أجل سلامتهم .. إنهم لن يمنحونا أصواتهم ، فى الانتخابات القادمة .

صاح به الرئيس فى حنق :

ـ ولكن انهيار الهيبة الأمريكية ، أمام منظمة جاسوسية حقيرة ، سينتزع منا أصوات ملايين الأمريكيين ، فى الانتخابات نفسها .

ثم هبّ من مقعده ، خلف مكتبه البيضاوى ، واتجه فى عصبية إلى النافذة ، مستطردًا :

ـ حاول أن تستوعب الأمر بشكل أفضل يا رجل .. إننا لانواجه تلك المنظمة من أجل المصريين ، أو الروس ، أو حتى الإسرائيليين .. إننا نواجهها من أجل هيبتنا وكرامتنا .. ألم تتصوّر رد فعل رجل الشارع

الأمريكي ، عندما يعلم أن منظمة جاسوسية قد نجحت فى الاستيلاء على قمر صناعى ، يحوى أقوى أسلحتنا على الإطلاق ، والتى كنا نستعد بها لدخول الألفية الثالثة ، وأمكنها بوساطته أن تنسف سداً هائلاً ، فى دولة لها مكانتها وسمعتها ، مثل (مصر) ؟! إنه سيصاب حتماً بذعر بلا حدود ، وسيدرك أننا لسنا بالمهابة ، التى نزرعها فى أعماقه .. وسيتساءل حتماً : ماذا لو كانت الضربة القادمة موجهة إلى أحد منشآتنا الحيوية ، أو أحد رموزنا الوطنية ؟! ماذا لو سحقت الضربة الثانية قاعدة (كيب كيندى) ، أو البيت الأبيض(*) ، أو (الكونجرس)(**) .. أو حتى (البنتاجون)(***) ؟! ماذا لو هوت الضربة على مقر المخابرات المركزية الأمريكية فى (لانجلى) بولاية (فيرجينيا) ؟!

ثم استدار إليه ، مضيفاً فى صرامة :

- هل سيمنحنا الناخب الأمريكى صوته عندئذ ؟!

(*) البيت الأبيض : مقر الرئاسة فى الولايات المتحدة الأمريكية .

(**) الكونجرس : مجلس الشيوخ الأمريكى .

(***) البنتاجون : المقر الرئيسى للمؤسسة العسكرية الأمريكية .

احتقن وجه وزير الدفاع الأمريكى فى شدة ، وهو يعيد دراسة الموقف فى ذهنه ، قبل أن يتمتم :

- لو أننى فى مكانه لما فعلت .

لوّح الرئيس بيده ، هاتفاً :

- بالضبط .

أخرج وزير الدفاع منديله ، وراح يجفّف به عرقاً وهمياً ، وهو يغمغم :

- لابد إذن أن نعثر على ذلك المقر السرى ، وبأقصى سرعة ممكنة .

ثم تضاعف احتقان وجهه ، وهو يتمتم :

- ولكن السؤال هو : كيف ؟! كيف يمكننا العثور عليه ، فى الوقت المناسب ؟! كيف ؟!

ورفع عينيه إلى الرئيس الأمريكى ، والتقت نظراتهما ، فى صمت عصبى متوتر ، فى حين بقى السؤال معلقاً فى المكتب البيضاوى الكبير ..

بلا جواب ..

* * *



مع تدفُّق الماء المثلَّج بهذه الغزارة ، من النوافذ الثلاث الكبيرة ، انعقد حاجبا (سيرجى) الكثان ، وهتف : - يا للأوغاد !

مع تدفُّق الماء المثلَّج بهذه الغزارة ، من النوافذ الثلاث الكبيرة ، انعقد حاجبا (سيرجى) الكثان ، وهتف :

- يا للأوغاد !

أجابه (أدهم) فى صرامة :

- تصرُّف طبيعى منهم .. لابد أن يبذلوا قصارى جهدهم ، لمنعنا من إفساد عملهم ..

ثم تلفَّت حوله ، مستطردًا :

- وعلينا ألا نستسلم لهذا أبدًا .

لم يكد يتمّ عبارته ، حتى ارتفع صوت (سونيا جراهام) ، عبر أجهزة الاتصال الداخلية ، وهى تهتف فى صرامة شامتة غاضبة :

- لا تتلفَّت حولك يا (أدهم) .. لا يوجد منفذ واحد للهروب هذه المرة .. إنك تواجه خطة طوارئ قصوى.. تم إعدادها بمنتهى الدقة ، منذ عام كامل .. فذلك الجزء من المقر ، الذى تم سجنكما داخله ، يقع تحت مستوى البحيرة الكبرى المتجمِّدة فى الخارج ، وستنهمر فيه المياه المثلَّجة ، حتى تغمره تمامًا ..

وصمتت لحظة ، ثم أضافت فى عصبية بثقة :

ـ أعلم أنها ميتة لا تناسب تاريخك الطويل ، أن تلقى مصرعك كفأر فى مصيدة ، ولكنك لم تترك لى الخيار .. لا يمكن أن أسمح لك بإفساد عملى هذه المرة أيضًا .. إنها فرصتى الأخيرة .. لن أخسر هذه المعركة أبدًا .. هل تفهم .. لن أخسرها أبدًا .

رفع (أدهم) فوهة مدفعه ، قائلاً فى سخرية :

ـ ليس كل ما يتمناه المرء يدركه يا عزيزتى .

قالها ، وانطلقت رصاصاته تنسف مكبرات الصوت ، وكاميرات المراقبة ، وكل ما يمكن أن يوحى بأنه هذا أو ذاك ..

وفى حجرة المراقبة ، انقطع الصوت دفعة واحدة ، وانطفأت الشاشات الخاصة بتلك الساحة ، فهتفت (سونيا) فى غضب :

ـ أيها الـ ..

قبل أن تتم عبارتها ، صاح بها (بريماكوف) فى عصبية :

ـ ماذا ستفعل الآن ؟!

أجابته فى حدة :

ـ سنواصل خطتنا كما هى .

هتف (شامبليون) :

ـ بعد كل ما حدث ؟!

صاحت فى حنق :

ـ وماذا حدث ؟! أسير نجح فى الفرار ، ومقاتل أحمق تسلل إلى هنا ، وقد احتوينا الاثنين فى قفص واحد ، وما هى إلا دقائق ، وتغمرهما المياه المثلجة تمامًا ، حتى الموت .

قال الجنرال (بريماكوف) فى غضب :

ـ وماذا عن ذلك الذى ظهر فجأة وسط رجالنا ؟! إنه رجل مخابرات روسى ، وكنت أعرفه جيدًا ، ولسنا ندرى بعد كيف وصل إلى هنا ؟! وهل يعلم رؤساؤه أيضًا بأمرنا أم لا ؟! ثم ما موقف هذا الصقر المصرى ، إذا ما كان الباقون فى الطريق ؟!

قالت فى عصبية :

- كل هذه الاحتمالات كانت واردة منذ البداية .

قال (شامبليون) فى عصبية :

- ثم ماذا ؟! هل ستكتفى بإطلاق النار ، لو هاجمتنا القوات الأمريكية أو الروسية ؟!

تضاعفت عصبيتها ، وهى تقول :

- أنتما لا تفهمان شيئاً .

قال (بريماكوف) فى حدة :

- دعينا نفهم إذن .

انفتحت شفتاها من فرط انفعالها ، وهى تنقل بصرها بين عدد من المؤشرات ، فى حجرة المراقبة والمتابعة ، قبل أن تقول فى عصبية :

- هل تعلمان ما أبرز سمات الثعلب(*) ؟!

(*) الثعلب : حيوان لاحم قانص ، ثديى من فصيلة الكلب ، فروه طويل ، وذيله كثيف ، يأكل الحيوانات الصغيرة والفئران ، يستوطن (أوربا) ، و(آسيا) ، و شمال (إفريقيا) ، و(أمريكا) و(كندا) ، والنوع القطبى منه يستوطن المناطق القطبية على نحو محدود ، ومن أنواعه فى (مصر) : (الثعلب المصرى) ، و (الثعلب الرملى) .

تطلعا إليها فى مزيج من الدهشة والحيرة ، قبل أن يقول (شامبليون) فى حذر :

- الدهاء !

هزت رأسها نفياً فى عصبية ، وقالت :

- كلا .. أبرز سماته على الإطلاق ، هى أنه لا يكتفى بمخرج واحد لو كره قط .. وبعض أنواعه لا تكتفى بوكر واحد أيضاً .

تبادلا نظرة شديدة الانفعال ، وهتف (بريماكوف) :

- ماذا تعنين بالضبط ؟!

تألقت عيناها ، وهى تجيب فى حزم ، امتزج بالكثير من العصبية :

- أعنى أننا قد تعلمنا دروساً كثيرة من الثعالب .

انفرجت شفتا الجنرال الفرنسى ، ليلقى سؤالاً آخر ، لولا أن انطلق أزيز مرتفع متصل ، من أحد المؤشرات ، فانتفضت (سونيا) فى عنف ، وهتفت بانفعال جارف :

- أخيراً !

ثم عادت عيناها تتألقان بشدة ، وهى تضيف ، مشيرة إلى المؤشر ، الذى انطلق منه الأزيز :

ـ انظروا .. هذا يعنى أن القاعة قد امتلأت حتى سقفها ، بمياه باردة كالثلج .

وارتجف صوتها من فرط الانفعال ، مستطردة :

ـ ويعنى أن (أدهم) والروسى قد غادرا عالمنا هذا .. فى قبر من ثلج .

وتألقت عيناها أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

* * *

« الأمريكيون لم يتوصلوا لشىء بعد .. »

نطق مدير المخابرات العامة العبارة فى توتر شديد ، فى مكتب رئيس الجمهورية ، الذى عقد حاجبيه وهو يقول :

ـ الوقت يمضى بسرعة ، وتلك المنظمة الحقيرة خفضت المهلة على نحو مبالغ ، ولم يعد أمامنا سوى أربعين دقيقة لحسم الأمر ، وإلا بدءوا هجومهم على بلدنا بلا رحمة .

هزّ مدير المخابرات المصرية رأسه ، وقال فى أسف :

ـ رجالنا أمامهم أكثر من ساعة ، حتى يمكنهم بلوغ المنطقة القطبية من (ألاسكا) يا سيادة الرئيس ، وهذا يعنى أنه ليس لديهم الوقت الكافى للقيام بالمهمة ، والروس لا يمكنهم اختراق الحدود الأمريكية ، مهما كانت الأسباب ، وهذا يعنى أن الأمل الوحيد يقتصر ، بعد الله (سبحانه وتعالى) ، على الأمريكيين وحدهم .

رفع الرئيس عينيه إليه فى صرامة ، قائلاً :

ـ وماذا عن رجلنا هناك ؟!

ردّ مدير المخابرات فى حذر :

ـ رجلنا ؟!

أجابه الرئيس فى حزم :

- نعم .. العميد (أدهم صبرى) .. إنه هناك كما تؤكدون .. أليس كذلك ؟!

تردد مدير المخابرات لحظة ، قبل أن يجيب :

- الواقع يا فخامة الرئيس أن هذا مجرد افتراض .

أجاب الرئيس :

- افتراض قوى للغاية ، كما تؤكد كل المؤشرات أيها المدير .. وكما تقود كل الدلائل والاستنتاجات .

ثم تراجع فى مقعده ، مضيفًا :

- وكما أتمنى .

تنهد مدير المخابرات ، قائلاً :

- كما نتمنى جميعًا يا سيادة الرئيس .

نهض الرئيس من خلف مكتبه ، واتجه إلى النافذة الكبيرة ، التى تطل على الحديقة ، وتطلع عبرها بضع لحظات ، قبل أن يقول فى حزم :

- لو فعلها ، سأمنحه ترقية استثنائية ، ووسام الجمهورية من الطبقة الأولى .

صمت مدير المخابرات بضع لحظات ، ثم قال فى حزم مماثل :

- إنه يستحقها عن جدارة يا سيادة الرئيس ، لو ..

بتر عبارته بغتة ، وتردد لحظة ، ثم لم يلبث أن حزم أمره ، وأكمل :

- لو فعلها .

صمت الرئيس بدوره طويلاً ، قبل أن يقول :

- لست أرغب فى أن أبدو متفائلاً أكثر من اللازم ، ولكن يبدو أن هذا ما أفعله بالفعل .

غمغم مدير المخابرات :

- التفاؤل ؟!

هز الرئيس رأسه نفيًا ، ثم التفت إليه ، قائلاً فى حسم :

- أن يفعلها .

ولاذ كلاهما بالصمت ، والدقائق تواصل طريقها نحو ساعة الصفر ..

وتمضى ..

وتمضى ..

وتمضى ..

* * *

أول ما تعلَّمه (أدهم) من والده ، منذ نعومة أظفاره ، هو ألا يفقد الأمل أبدًا ، مهما كانت الظروف ..

« هناك حتمًا مخرج ما .. »

« لا يوجد فخ مطبق حتى آخر رمق .. »

« أهم ما فى الأمر ، هو ألا تفقد أعصابك أبدًا .. »

« العقل وحده هو المخرج »

« فكِّر يا (أدهم) .. اعتصر عقلك .. اعتصره ، فكِّر .. »

استعاد ذهنه كل تلك الكلمات ، التى سمعها فى حداثته ، وتفجَّر كل حرف منها فى أعماقه ، واندفع فى عروقه مع مجرى الدم ، قبل أن يهتف فى حزم :

ـ هناك مخرج واحد .

استدار إليه (سيرجى) ، متسائلاً :

ـ ماذا تقول ؟!

كرَّر العبارة بالروسية ، فهتف (سيرجى) :

ـ أين هو ؟!

رفع (أدهم) يده إلى النوافذ ، التى يتدفَّق منها الماء البارد ، وأجاب :

ـ هنا .

قالها ، وخاض فى المياه الباردة فى حزم ، متجهًا نحو إحدى النوافذ ، فهتف به (سيرجى) مستنكرًا :

ـ وما الذى يمكن أن تقودنا إليه ؟! الماء يتدفَّق منها فى قوة ، وبدرجة برودة تحت الصفر ، ثم إنها تأتى من بحيرة تجمَّد سطحها ! أى مخرج هذا ؟!

أجابه (أدهم) فى حزم صارم :

ـ المخرج الوحيد .

ثم راح يتسلَّق الجدار فى حسم ، معلقًا مدفعه الآلى خلف ظهره ، ومحتملاً المياه المثلجة ، التى تتدفَّق على رأسه ، بإرادة من حديد ..

وتردد (سيرجى) لحظة ..

ثم أدرك أنه على حق ..

وبسرعة ، لحق به ..

كان الماء البارد كالثلج يتدفق فى قوة ، ولكن كليهما كان صلبًا كالفولاذ ، قاسيًا كألف جبل ثلج ، قويًا كفريق من الرجال ..

لذا ، فقد اندفعا عكس التيار ، بكل قوتهما ..

وصلابتهما ..

وإرادتهما ..

ولم يكن هذا بالأمر السهل على الإطلاق ..

لقد كان أشبه بمحاولة نقل جبل جليدى ضخم ، بملعقة شاى صغيرة ..

ولكنهما قاوما ..

وقاتلا ..

واحتملا ..

وبكل آلامه وأوجاعه ، ضغط (أدهم) شفته السفلى بأسنانه ، وهو يشعر أن كل خلية فى جسده قد تجمدت ، وأنّت بعذاب بلا حدود ..

والماء البارد ، الذى يضرب وجهه ، كان يبعث فى كيانه نوعًا من الألم ، لم يعهده فى حياته كلها قط ..

ولكن العذاب الحقيقى كان ينبعث من أصابعهما ، التى تسلقا بها الجدار ، ويزحفان بها عبر النفق المعتم ، الذى تتدفق فيه المياه الباردة كالثلج ..

تلك الأصابع تجمدت ..

وتشبثت بجدران باردة متجمدة ..

ودفعت جسدين قويين ..

وانبعثت منها أقسى آلام عرفها كلاهما ، منذ وعى الدنيا ..

ولمرة أو مرتين ، راودت (سيرجى) فكرة الاستسلام ..

فكرة أن يترك جسده للماء البارد ، ليدفعه أمامه فى عنف ، ويعيده إلى تلك المساحة المغلقة ، ليلفظ فيها أنفاسه الأخيرة ..

لولا ما يراه إلى جواره من إرادة فولاذية متحدية ، يتمتع بها رفيقه ..

(أدهم صبري) ..

إرادة انعكست على كيانه كله ، وجعلته يقاوم ..

ويقاوم ..

ويقاوم ..

ثم انخفض دفع الماء البارد بغتة ..

ومع انخفاضه ، ارتفع منسوب الماء داخل النفق المعدني ، ليغمرهما تمامًا ..

وكان هذا يعني أن القاعة ، التي تركاها خلفهما ، قد امتلأت عن آخرها ..

امتلأت حتى سقفها ..

وهنا ، وعلى الرغم من آلامهما وعذابهما ، والبرودة الرهيبة للماء حول جسديهما ، راحا يسبحان بكل عزمهما ..

وكل قوتهما ..

ولقد بدا لهما الممر أطول مما ينبغي ..

وراح الهواء الحبيس في صدريهما يقل ..

ويقل ..

ويقل ..

والبرودة الرهيبة ، تبعث في جسديهما آلامًا أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

ثم فجأة ، لاح ضوء من بعيد ..

ومع مرأى الضوء ، استعاد كلاهما حماسته وقدراته ، وراحا يسبحان بكل قوتهما ، عبر الممر الضيق ، نحو الضوء ، و ...

وانعقد حاجبا (أدهم) في شدة ..

فعند نهاية الممر ، وحيث يتسلل الضوء ، كانت هناك شبكة من المعدن ، تغلق المخرج الوحيد تمامًا ..

وتحركت أطراف (سيرجي) في عصبية بالغة ..

فوجود تلك الشبكة المعدنية كان يعني أن نهاية النفق هي أيضًا نهايتهما ..

حتمًا ..

* * *

« لا تستسلم أبداً يا (أدهم) .. »

« ثق فى رحمة الله (سبحانه وتعالى) .. »

« لا تستسلم .. »

« لا تستسلم .. »

ترددت العبارة عشرات المرات ، فى ثانية واحدة ، فى ذهن (أدهم) ، وهو يتطلع إلى الشبكة المعدنية ، فى نهاية النفق ، فى حين راح (سيرجى) يجاهد للدوران حول نفسه ، داخل النفق الضيق ، وكأنما يسعى للعودة إلى القاعة ..

وفى حزم ، ومع الأنفاس القليلة المتبقية فى صدره ، انتزع (أدهم) المدفع الآلى عن كتفه ، وصوّب فوهته إلى طرف الشبكة المعدنية ..

وضغط الزناد ..

وانطلقت الرصاصات فى غزارة تحت الماء ..

فى البداية أخطأت هدفها ، بسبب معامل انكسار الضوء فى الماء ، والذى وضع الأشياء بالنسبة للعين ، فى غير موضعها الفعلى ..

ولكن عقل (أدهم) المدرب استوعب درجة الانكسار ..

وانطلقت رصاصاته الثانية ..

نحو هدفها تماماً ..

وما إن اخترقت الهدف وحطمته ، حتى جذب (أدهم) (سيرجى) فى قوة ، واندفع به نحو الشبكة ، التى انهارت مع ارتطامهما بها ..

ومع خروجهما من النفق ، بدا سطح البحيرة المتجمد فى وضوح ..

كان هو مصدر الضوء ، الذى تسلل إليهما فى النفق ..

ولكنه لم يكن ضوءاً طبيعياً ..

كانت هناك مصابيح قوية خارج البحيرة ..

مصابيح تتألق داخل قاعة ما ..

ولكن لم يكن هناك وقت للفحص والتفكير ..

لابد أن يتم تحطيم السطح المتجمد أولاً ..



وإلا فلا أمل فى النجاة ..

لا أمل على الإطلاق ..

لذا ، فقد ارتفع الاثنان بجسديهما ، ورفع (أدهم) فوهة مدفعه الآلى ..

وضغط الزناد ..

ولكن رصاصة واحدة لم تنطلق ..

لقد فرغت خزانة المدفع من آخر رصاصاتها ، عند تحطيم الشبكة المعدنية ..

وكان هذا يعنى أنه لاتوجد وسيلة لتحطيم سطح البحيرة المتجمد ..

وبالتالى لا يوجد أمل ..

أدنى أمل ..

* * *

٧ ـ الأمل الأخير ..

منذ تلك اللحظة ، التى أعلنت فيها المؤشرات ، أن القاعة قد غمرتها المياه المثلجة تمامًا ، لم تهدأ (سونيا جراهام) لحظة واحدة ..

لقد راحت تشرف بنفسها على كل مراحل إطلاق مدفع الليزر الكبير ، من القمر العسكرى الأمريكى ، نحو السد العالى مباشرة ..

وبالنسبة إليها ، كان الوقت يمضى فى بطء شديد .. شديد للغاية ..

نصف الساعة تبقت ، قبل أن يستقر القمر فى موضعه المنشود ، ويصبح قادرًا على إصابة الهدف .. بمنتهى الدقة ..

وهى لن تسمح بالفشل هذه المرة ..

مهما كانت الأسباب ..

ومهما كان الثمن ..

وبكل توترها وانفعالها ، ودون أن تنجح فى طرح صورة (أدهم) عن ذهنها لحظة واحدة ، راحت تشرف على كل الخطوات ، وهى تلقى أوامرها هنا وهناك ، حتى اعترض (شامبليون) و (بريماكوف) طريقها فجأة ، والأول يقول فى صرامة :

ـ نريد أن نعرف .

تجاوزتهما ، قائلة فى عصبية :

ـ فيما بعد .

ولكن (بريماكوف) أمسك ذراعها فى قوة ، قائلاً فى خشونة :

ـ الآن .

توقفت بغضب هادر ، وسألته فى حدة :

ـ ما الذى تريدان معرفته ؟!

سألها (شامبليون) فى صرامة :

ـ ما الذى سيحدث ، لو انقلبت الأمور رأسًا على عقب ؟!

قالت في صرامة محتدة :

ـ لن تنقلب أية أمور .. إننا نسيطر على الموقف تماماً .

سألها (بريماكوف) في غلظة :

ـ وماذا لو فقدنا تلك السيطرة ؟!

عاودت تحركها ، قائلة في حدة :

ـ لن نفقدها

أمسك (بريماكوف) ذراعها مرة أخرى ، في غضب غليظ ، وهو يقول بلهجة قاسية :

ـ دعينا نفترض أن هذا قد حدث .. مجرد افتراض .

قالت في غضب ، وهي تزيح أصابعه عن ذراعها في حدة :

ـ كل شيء تم الإعداد له .. كل الاحتمالات .

اعترضها (شامبليون) ، وهو يقول في غضب هادر :

ـ ولماذا تعلمين هذا ولا نعلمه نحن ؟! ما الفارق بيننا وبينك ؟! لقد جازفنا جميعاً بأرواحنا ، وتحدينا دولنا ، وواجهنا العالم كله ، وكلنا ثقة في قوة المنظمة وقدراتها ، وبراعتها في إخفاء أمرها عن الجميع ، وهي تتحداهم بكل الجرأة والذكاء .. ولكن ثغرة كبيرة ظهرت في الموقف كله .. ثغرة تمرد بسببها (بارون) الإسرائيلي ، ولقي مصرعه من أجلها ، ونجح المصري في الفرار منها ، في نفس الوقت الذي عبرها فيه روس إلينا .. ثغرة قد تعني انهيار المنظمة كلها ، وانقضاض العالم كله علينا بلا رحمة .. وعندما حدث هذا .. فوجئنا بأنك تعلمين ما لا نعلمه ، وتعرفين كل ما نجهله .. فلماذا ؟!

قالت في حدة :

ـ كنا هنا منذ البداية .

قال (بريماكوف) في سرعة وصرامة :

ـ أو أن (بارون) كان على حق .

أدارت عينيها إليه في عصبية ، فتابع بنفس الصرامة :

ـ ولكنك أنت مستر (X) .

قالت فى حدة :

ـ لماذا يصرّ الجميع على هذه السخافات ؟! مستر (X) رجل وليس امرأة !

قال (شامبليون) فى غضب :

ـ ومن أدرانا ؟!

هتفت :

ـ لقد رأيتماه بنفسيكما .

هتف (بريماكوف) بدوره :

ـ رأينا ماذا ؟! لقد قالها (بارون) من قبل .. إننا لم نر شيئاً .. مجرّد ظل وهمى ، يتحدث بصوت آلى ، تم تغيير حدته ونبراته ، بحيث يستحيل تمييز مصدره .

ومال نحوها ، مستطرداً فى حزم :

ـ ثم إننا لم نلتق به معاً قط .

نقلت بصرها بينهما ، فى عصبية زائدة ، قبل أن تقول :

ـ اسمعا .. من الواضح أنكما قد جننتما ، وفقدتما كل عقل ومنطق ، عند أول بادرة خطر .. المشكلة الحقيقية هى أن الوقت لا يكفى لصفعكما على مؤخرتيكما ، حتى تستعيدا حكمتكما وشجاعتكما ، فخلال سبع عشرة دقيقة فحسب ، سيبلغ القمر موقعه المثالى ، لإصابة السد العالى المصرى ، ولن أضيع هذه الفرصة النادرة فى ...

قبل أن تتمّ عبارتها ، هتف أحد الرجال فجأة ، بصوت حمل ألف طن من التوتر والانفعال :

ـ سيدتى .. انظرى .

أدارت عينيها إلى شاشة المراقبة ، التى يشير إليها ، فى سرعة مبعثها التوتر والقلق والحدة ، ثم اتسعت عيناها عن آخرهما ، وانتفض جسدها كله بمنتهى العنف ، فى نفس اللحظة التى هتف فيها الجنرال (بريماكوف) ، بذهول بلا حدود :

ـ مستحيل !

فقد كانت الشاشة تنقل صورة لبرج البث الوحيد خارج المقر ، والذى يبدو على هيئة بروز ثلجى مرتفع ..

ولكن ما رآه الجميع ، إلى جوار البرج ، كان مذهلاً ..

مذهلاً بحق ..

* * *

لم تنطلق من مدفع (أدهم) رصاصة واحدة ، عندما حاول استخدامه لتحطيم جزء من سطح البحيرة المتجمّد ..

ومرة أخرى ، انطلقت فى عقله نصيحة والده الراحل ..

« لا تيأس أبدًا يا أدهم .. »

« لا تيأس .. »

ودون أن يتبادل كلمة واحدة مع الروسى ، واصل كلاهما صعوده إلى السطح المتجمّد ، وقد بدت لهما أطرافهما ، وكأنما تحولت إلى كتلة من الجليد ..

وعند تلك المنطقة ، التى تفصل السطح المتجمّد عن مياه البحيرة الباردة كالثلج ، توقّف كلاهما ، ورفعا وجهيهما إلى أعلى ..

والتقطا معًا نفسًا عميقًا ، من الهواء البارد ..

نفسًا ملأ صدريهما بالهواء ، وأطلق فى ضلوعهما موجة من الألم بلا حدود ..

فبحكم دراستهما ، وعملهما ، وخبراتهما السابقة ، كان كل منهما يعلم أن السطح الجليدى ، لأية بحيرة متجمّدة ، ينفصل حتمًا عن قاعها السائل ، بطبقة من الهواء البارد ، هى نفسها التى تمنع امتداد حالة التجمّد حتى القاع(*) ..

ظاهرة طبيعية ، تمنح بها الطبيعة الحياة لكائنات البحيرة ، فى موسم الثلوج ..

ومن هذه الطبقة الباردة ، ملأ كل منهما صدره ..

وبصوت ارتجفت كلماته ، من فرط البرودة القاسية ، قال (سيرجى) :

(*) حقيقة ..

- وماذا بعد ؟! لو بقينا فترة أطول هنا ، ستتجمد أطرافنا ، ونلقى مصرعنا حتمًا .

قال (أدهم) فى حزم :

- فلنحرص على ألا نبقى فترة أطول إذن .

سأله فى توتر ملحوظ :

- وكيف أيها العبقرى ؟!

رفع (أدهم) المدفع الآلى ، قائلاً :

- لقد فرغت رصاصاته .

ثم أضاف ، وهو يمسك به فى قوة :

- ولكنه ما زال أداة معدنية مناسبة .

وبكل قوته ، راح يضرب السطح المتجمد من أسفل ، بماسورة المدفع الآلى ، فغمغم (سيرجى) محنقًا :

- من سوء الحظ أننى قد تخليت عن مدفعى ، عندما فرغت رصاصاته .

غمغم (أدهم) :

- مدفع واحد يكفى .

أمسكا المدفع معًا ، وراحا يتعاونان على دق السطح المتجمد بماسورته بكل قوتهما ..

كانت أطرافهما متجمدة بالفعل ، والآلام تنتشر فى كل عضلة فى جسديهما ، والجهد الذى يبذلانه رهيب ..

إلى أقصى حد ..

ولكن كليهما لم يكن رجلاً عاديًا ..

لقد كانا رجلى مخابرات ..

ومقاتلين قُدَّا من صخر ..

أو من فولاذ ..

أما إرادتهما ، فكانت أشبه بالصلب ..

أو أشد قوة ..

ثم إن كليهما كان يدرك أهمية نجاحهما ..

يدركه تمامًا ..

لذا فقد انتصرا ..

انتصرا على المستحيل نفسه ..

وتحت وطأة ضرباتهما العنيفة المتواصلة ، تشقق السطح الجليدى ..

ثم انهار جزء منه ..

جزء يكفى لعبورهما ..

وخلال لحظات قصار ، كان كلاهما خارج الفجوة ..

وداخل قاعة ضخمة ..

قاعة هائلة ، بدت فى نهايتها الغواصة النووية الروسية ، قابعة كحوت ضخم من الخشب ، دون حارس واحد إلى جوارها ..

باستثناء ذلك الذى قتله (سيرجى) من قبل ..

وبصوت مرتجف ، مع الإحساس بالبرد الشديد ، والذى تضاعف مرتين على الأقل ، بعد خروجهما بثيابهما المبتلة من البحيرة المتجمدة ، غمغم (سيرجى) :

ـ يا للغرور ! كيف يتركون تحفة فنية مثلها بلا حراسة ؟!

شعر (أدهم) بألم شديد ، فى أطرافه كلها ، وهو يجيب :

ـ من المؤكد أنه ليس لديهم ما يكفى من الرجال ، حتى هذه اللحظة ، ثم إنهم داخل مقر سرى ، لا يعلم مكانه أحد ، ومن الطبيعى أن يشعروا داخله بالثقة ..

ارتجفت كلمات (سيرجى) أكثر ، وهو يغمغم :

ـ حمقى !

نطقها ، ثم دارت عيناه فجأة فى محجريهما ، وهوى أرضًا كالحجر ..

كان جسده يرتجف بشدة ، وأطرافه متجمدة حتى الموت ، وآلام بلا حدود تلتهم كيانه كله ..

ولم يكن (أدهم) بأفضل منه ..

ثيابه المبتلة كانت تتجمد على جسده ، وتكاد تقتله بلا رحمة ..

وكل ذرة فى كيانه كانت ترتجف ..

بمنتهى العنف ..

حتى رجل المستحيل مجرد بشر ..

بشر لا يمكن أن ينتصر أبدًا على قوى الطبيعة ..

الطبيعة التي صنعها الخالق (عزّ وجلّ) ..

ولأن هذا آخر ما تبقّى له في مواجهتها ، فقد استنفر (أدهم) كل إرادته الفولاذية ، والحنى يحمل (سيرجي كوربوف) ، وهو يرتجف على نحو لم يعهده في جسده من قبل ، ويتجه بأطراف متجمّدة نحو الغوّاصة ..

كان يدرك أن أمله الوحيد ، بعد الله (سبحانه وتعالى) يكمن داخلها ..

إلى جوار مدفأة إليكترونية في أعماقها ..

وكم بدت له الغوّاصة عندئذ بعيدة ..

بعيدة ..

بعيدة ..

وكأنها في الطرف الآخر من الكرة الأرضية ..

ولكنه واصل سيره بحمله ..

وواصل ..

وواصل ..

كان وكأنما قد فقد كل حواسه ومشاعره البشرية ، وصار مجرّد آلة ، هدفها الوحيد هو بلوغ الدفء ..

في قلب الغوّاصة النووية الروسية ..

أما (سيرجي) ، فقد بدا وكأنما قد لقى مصرعه بالفعل ..

لم ينطق حرفًا واحدًا ، أو تصدر عنه أدنى حركة توحي بالحياة ، وأدهم يحمله على كتفه ، في محاولة يائسة لإنقاذه ..

ويبدو أن أحاسيس (أدهم) أيضًا قد تجمّدت مع أطرافه ..

وكذلك ذاكرته ..

فهو لا يدري كيف ومتى بلغ الغوّاصة ..

ولا كيف صعد بحمله إليها ، ووجد طريقه داخلها ..

كل ما يذكره هو ذلك الدفء ، الذي سرى في أطرافه ، وهو يجلس داخل حجرة القيادة فيها ، على مسافة متر واحد من مدفأة كهربية كبيرة ..

وبسرعة ، راح ينزع ثيابه وثياب (سيرجى) ، واستبدل بهما بعض الثياب الروسية العسكرية ، التى عثر عليها فى خزانة الملابس ..

ومع الدفء والرعاية ، استعاد (سيرجى) وعيه ، وتمتم :

- هل .. هل نجونا ؟!

تنهد (أدهم) ، وأومأ برأسه ، مغمغمًا :

- الله (سبحانه وتعالى) لم يكتب لنا الموت بعد يا صديقى .

تطلع (سيرجى) إلى زى البحرية الروسية ، الذى يرتديه (أدهم) ، وابتسم فى صعوبة ، قائلاً :

- هأنتذا قد أصبحت واحدًا منا .

هز (أدهم) رأسه ، وهو يقول فى حزم :

- لا يهم أى زى ترتدى يا رجل .

ثم شد قامته ، مضيفًا :

- المهم لأى علم تدين بالولاء .

والتقط مدفعًا آليًا ، وحقيبة ظهر صغيرة ، مضيفًا فى حسم :

- وأنا مصرى ، من قمة رأسى وحتى أخمص قدمىّ .

غمغم (سيرجى) :

- كلنا نعلم هذا .

ثم اعتدل ، يسأله فى قلق :

- إلى أين ؟!

أشار (أدهم) بمدفعه ، مجيبًا :

- (سونيا) تحدثت عن خطة حقيرة ، لنسف السد العالى ، الذى ساعدتمونا قديمًا فى بنائه ، بوساطة أحد أقمار مشروع حرب النجوم الأمريكية .. وأنت تحدثت عن برج إرسال ، يختفى فى صورة نتوء ثلجى مرتفع .. وأنا أدرك أن الوسيلة الوحيدة ، لمنع الهدف الأول ، هى نسف الهدف الثانى .

ورفع الحقيبة ، مستطردًا :

- وهذا كل ما عثرت عليه من متفجرات هنا .

سأله (سيرجى) :

ـ ما نوعها ؟!

أجابه (أدهم) فى هدوء :

ـ (C-4) .

نهض سيرجى) ، قائلاً :

ـ هذا يحتاج إلينا معًا .

هزّ (أدهم) رأسه نفيًا فى حزم ، وقال :

ـ لابد أن يبقى أحدنا هنا يا صديقى .

سأله مستنكرًا :

ـ ولماذا ؟!

هزّ كتفيه هذه المرة ، وهو يجيب :

ـ عندما توشك السفينة على الغرق ، تسعى كل الفئران إلى الفرار .

ضاقت عينا (سيرجى) ، وهو يغمغم :

ـ فهمت .

ألقى إليه (أدهم) مدفعًا آليًا ، وهو يقول :

ـ ستحتاج إلى هذا .

التقطه (سيرجى) ، قائلاً فى صرامة :

ـ قم بعملك جيدًا .

ابتسم (أدهم) ، وغمغم :

ـ وأنت أيضًا .

قالها ، وغادر الغوّاصة فى سرعة ، وراح يسير بمحاذاة مسار الغوّاصة ، وهو يعلم أن هذا سيقوده حتمًا إلى مخرج ما ..

ولكن لم يكن هناك مخرج مباشر ..

فقط نفق صغير ضيق ، وسط جدران المقرّ السرى ، يبدو وكأنه معدّ لتجهيزات مستقبلية متوقّعة ..

كان المرور عبره عسيرًا مرهقًا ..

ولكنه قاده إلى الخارج بالفعل ..

إلى ثلوج (ألاسكا) ، التى تمتدّ أمامه إلى ما لانهاية ..

ولثانية أو ثانيتين ، راح (أدهم) يدير عينيه فيما حوله ، بحثًا عن أي نتوء جليدي رأسي ، يصلح كبرج إرسال واستقبال خفي ..

كان واثقًا من أن رجال المنظمة لديهم وسيلة لمراقبة ما حول مقرهم السري حتمًا ..

ولكنه لم يبال بهذا ..

المهم أن يجد ذلك البرج ..

وأن ينسفه ..

مهما كان الثمن ..

حتى لو كان حياته نفسها ..

فمنذ نعومة أظافره ، تعلّم أن حياته لا تهم ..

المهم هو (مصر) ..

(مصر) أولًا ..

وقبل كل شيء ..

وبسرعة ، راحت عيناه الخبيرتان تفحصان المكان كله ، و ...

وتوقفتا عند بقعة بعينها ..

عند نتوء ثلجي ضئيل ، يبدو وكأنه جزء من التكوين الجليدي العام المحيط به ..

فقط عين خبيرة ، كعين (أدهم صبري) ، يمكنها أن تكشف الزيف الكامن فيه ..

وبكل الحزم والثقة ، اتجه (أدهم) نحو ذلك النتوء الثلجي ..

نحو برج البث والاتصال الرئيسي لمقر منظمة (اكس) السري ..

كانت كل عضلة في جسده تئن ألمًا ، والدماء تجمّدت حول جراحه العديدة ، والدوار العنيد يصرّ على مهاجمة رأسه في إلحاح ..

وكان يدرك جيدًا أن اقترابه من البرج الرئيسي يعني الخطر ..

كل الخطر ..

ولكنه لم يتردد لحظة واحدة ..

لقد واصل طريقه ، واقترب من برج البث أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

وكان هذا ما شاهدته (سونيا) مع الآخرين ، على شاشة المراقبة ..

وما أثار ذهولها ..

وغضبها ..

وثورتها ..

وبعصبية شديدة ، هتف (بريماكوف) ، وهو يشير إلى الشاشة :

- أهذا هو الموقف ، المفترض أننا نسيطر عليه تمامًا ؟!

هتفت (سونيا) فى حنق :

- ولكن هذا مستحيل ! كيف تمّ ؟!

هتف (شامبليون) بغضب هادر :

- أخبرينا أنت كيف !

كان (أدهم) قد بلغ البرج ، فى تلك اللحظة ، وبدأ يفتح حقيبة المتفجرات بالفعل ، فهتفت (سونيا) برجالها فى انفعال :

- امنعوه .. امنعوه بأى ثمن .

اندفع فريق من الرجال خارج المكان ، لتنفيذ الأمر ، فى حين التفتت هى إلى رجل آخر ، وقالت فى صرامة :

- تابع عملية توجيه القمر ، وأطلق مدفع الليزر ، فور استقراره فى موضعه .

ثم هتفت بثالث :

- صلنى بمكبرات الصوت الخارجية .

والتقطت جهاز الاتصال ، مضيفة فى عصبية :

- لابد أن نربح الدقائق الخمس عشرة الأخيرة .. بأى ثمن .

كان (أدهم) يغرس عبوات المفجّر (C - 4) ، حول قاعدة البرج ، فى سرعة ومهارة ونشاط ، فازدردت لعابها فى عصبية ، وهى تهتف :

- إياك أن تفعلها يا (أدهم) .

بلغه صوتها ، عبر مكبر صوتى خفى أعلى البرج ، فابتسم فى سخرية ، وقال دون أن يتوقف عن عمله :

- مرحبًا يا عزيزتى (سونيا) .. كنت واثقًا من أنك تتابعين ما يحدث حتمًا .

هتفت به فى غضب صارم :

- لو نسفت هذا البرج ، سيكون الثمن غاليًا .

قال فى سخرية ، دون أن يتوقف عن عمله :

- ولو تركته سيصبح الثمن أغلى يا عزيزتى .. منظمتكم الحقيرة تستهدف (مصر) ، ولن أسمح بحدوث هذا أبدًا .. مهما كان الثمن .

صرخت بغضب هادر :

- إننى أحذرك .

لم تكد صرختها تنطلق ، حتى دوت رصاصة فى المكان ، وشعر (أدهم) بخيط من اللهب يخترق ذراعه اليمنى ..

وبسرعة مدهشة ، التقط مدفعه الآلى ، واستدار يواجه مهاجميه ..

كانوا تسعة رجال ، يرتدون ألواح تزلق على الجليد ، ومناظير داكنة ، لحماية عيونهم من الانعكاسات الثلجية ، وكل منهم يحمل مدفعًا آليًا قويًا ، وكلهم ينطلقون نحوه ، ويطلقون رصاصاتهم بلا هوادة ..

وتناثرت رصاصاتهم حوله ..

واخترقت رصاصة أخرى فخذه ..

وتفجرت الدماء من إصابته ..

والتصقت بالجليد المتجمد على ثيابه ..

ولكنه لم يتوقف ..

كانت طبيعته الشخصية ، وكل ما تعلمه من والده الراحل ، منذ نعومة أظفاره ، يجعله ينفر من القتل وإراقة الدماء ..

إلا للضرورة ..

وفى موقفه هذا ، كان القتل ضرورة ..

ضرورة حتمية ..

لذا ، فقد رفع (أدهم) فوهة مدفعه ..

ورد الرصاصات بمثلها ..

وعلى الشاشة ، رأت (سونيا) رجالها يتساقطون واحدًا بعد الآخر ، مع رصاصات (أدهم) ، التى بدت وكأنها تعرف طريقها وأهدافها جيدًا ..

وفى عصبية زائدة ، التفتت إلى متابع مسار القمر ، وسألته :

ـ كم تبقى لدينا ؟!

أجاب فى توتر :

ـ اثنتا عشرة دقيقة وسبع ثوان .

انعقد حاجباها فى شدة ، وهى تغمغم :

ـ يا للسخافة ! يا للسخافة !

تبادل (بريماكوف) نظرة متوترة مع (شامبليون) ، قبل أن يشير إليه ، ليغادرا المكان معًا ، وما إن أصبحا خارجه ، حتى قال الأول فى عصبية :

ـ هل يبدو لك هذا موقفًا تحت السيطرة ؟!

هزّ (شامبليون) رأسه ، قائلاً فى توتر بالغ :

ـ لو أردت رأيى ، فالأمور خرجت عن كل سيطرة .

وافقه (بريماكوف) بإيماءه من رأسه ، قائلاً :

ـ هذا رأيى أيضًا .

لاذا بالصمت لحظة ، ثم قال (بريماكوف) :

ـ ألديك فكرة محدودة ؟!

أومأ (شامبليون) برأسه فى حذر ، مغمغمًا :

ـ بل لدى ما هو أفضل .. وسيلة مضمونة للخروج من هنا .

تألقت عينا (بريماكوف) ، وهو يقول :

ـ وأنا أيضًا .

كانا يواصلان حديثهما ، عندما رأت (سونيا) على الشاشة آخر رجالها يلقى مصرعه برصاصات (أدهم) ، الذى تجاهل إصاباته الجديدة مع القديمة ، وعاد يواصل عمله ، ويوصل عبوات المفجّر بجهاز تفجير لاسلكى خاص ، فصاحت فى عصبية :

ـ لو فعلتها ستدفع الثمن غاليًا .

هتف بها :

ـ سأحتمل المخاطرة .

انعقد حاجباها فى وحشية شرسة ، وهى تقول :

ـ اسمعنى جيدًا .. من الواضح أنك لا تدرك حقيقة الموقف بالضبط .. الثمن الذى أتحدث عنه ليس مجرد تهديد أجوف ..

هل تتذكر حديثنا السابق ؟! لقد أخبرتك أن لدينا ناقلة بترول مصرية بكامل طاقمها .. هل تصورت أننا نحتفظ بطاقم كامل كهذا ، دون سبب وجيه ؟!

رآته يتوقف عن عمله ، ويعقد حاجبيه في توتر ، فأوقفت البث ، وهتفت بحارسها الخاص (رونالدو) :

- أرسل موجة هجوم أخرى .. اقتلوه بأي ثمن .. هل تفهم .. بأي ثمن .

وأدارت عينيها إلى متابع المسار ، فتمتم :

- تسع دقائق وأربعون ثانية .

خفق قلبها في قوة ، وهي تتمنى أن تربح تلك الدقائق المتبقية ، في نفس اللحظة ، التي هتف فيها (أدهم) :

- ما الذي تعنيه بالضبط يا (سونيا) ؟!

أجابته في صرامة شرسة :

- أعني أن ناقلة البترول أصبحت ملغمة ، وبداخلها كل طاقمها ، ولو أنك نسفت البرج ، تكفي ضغطة واحدة على زر بسيط هنا ، ليتم نسفها نسفًا ، بكل ما عليها ، ومن عليها .

ازداد انعقاد حاجبيه ، وبدت عليه علامات التفكير والتوتر ، في حين أشار إليها متابع المسار ، مغمغمًا :

- ثمان دقائق وعشرون ثانية .

تألقت عيناها ، وهي تهتف :

- ما قولك يا (أدهم) ؟!

هزّ رأسه في قوة ، قائلاً :

- ليس من السهل أن أضحي بحياة طاقم كامل يا (سونيا) .

غمغمت في ظفر :

- أعلم هذا .

هزّ رأسه مرة أخرى ، وهو يقول في حزم :

- ولكن من المستحيل أيضًا أن أضحي بـ (مصر) كلها .

مع آخر حروف عبارته ، برزت موجة الهجوم الثانية ..

اثنا عشر رجلاً ، يحملون مدافع آلية ، من نفس الطراز ، الذي واجهه في أدغال (كومانا) .



تلك المدافع ذات البصمة الإليكترونية ، المزودة بقاذف صاروخي ، وقاذفة لهب معًا ..

وكان عليه أن يتخذ القرار في لحظة واحدة ..

إما أن يضحي بناقلة البترول وطاقمها ..

أو بـ (مصر) كلها ..

ولقد اتخذ (أدهم) قراره ..

وبوثبة قوية ، قفز مبتعدًا عن برج الاتصال ، فصرخت (سونيا) ، بكل ذعر الدنيا :

- لا .. لا تفعلها .

ولكنه ضغط زر المفجِّر اللاسلكي ..

ودوى الانفجار ..

بمنتهى العنف .

* * *

٨ ـ دماء على الجليد ..

في واقعة غير مسبوقة ، عبر تاريخ المكتب البيضاوي كله(*)، اقتحم وزير الدفاع الأمريكي المكان ، وهو يهتف :

ـ انفجار .. انفجار يا سيادة الرئيس .

هبَّ الرئيس الأمريكي من مقعده ، هاتفًا :

ـ أي انفجار ؟!

أجابه الوزير ، في انفعال جارف :

ـ انفجار في قلب (ألاسكا) .. في أقصى الشمال .. كل الدلائل تشير إلى أنه ذلك المقر السري ، الذي نبحث عنه .. لا يوجد أي تفسير آخر .

هتف الرئيس :

ـ ماذا تنتظر إذن يا رجل ؟! هيا .. أرسل كل الرجال إلى هناك على الفور .

(*) مصطلح يطلق على مكتب الرئيس الأمريكي .

قال الوزير في انفعال :

ـ أمرك يا سيادة الرئيس .. أمرك .

واندفع لتنفيذ الأمر ، في حين عاد الرئيس الأمريكي يلقي نفسه على مقعده ، ويطلق زفرة ملتهبة ، من أعمق أعماق صدره ..

أخيرًا استعادت (أمريكا) هيبتها ..

أخيرًا ..

* * *

كان الانفجار أقوى مما تصوَّر الجميع ..

حتى (أدهم صبري) نفسه ..

لقد انفجرت قاعدة برج البث ، بدوي هائل عنيف ، سجلته الأقمار الصناعية الأمريكية ، التي تجوب المنطقة بحثًا ، وارتجَّ له المقر السري لمنظمة (إكس) بأكمله ، واندفع معه جسد (أدهم) لستة أمتار في الهواء ، قبل أن يرتطم بأحد رجال موجة الهجوم الثانية ، ويسقط معه أرضًا ..

ومع سقوطهما ، هتف الرجل بعبارة ساخطة ..

وحاول أن يهب واقفاً ..

وأن يطلق النار على (أدهم) ..

ولكن هذا الأخير، وعلى الرغم من كل إصاباته ، تحرك بسرعة مدهشة ، ولكم الرجل فى فكه مباشرة ، فأسقطه فاقد الوعى ..

ومن مسافة عدة أمتار ، شاهد أفراد موجة الهجوم الثانية ينهضون من سقطتهم ، التى دفعهم إليها الانفجار القوى ..

وكان على (أدهم) أن يتحرك بأقصى سرعة ..

من أجل حياته ..

ولأنه يدرك أن ذلك المدفع الآلى لن يستجيب له أبداً ، فقد ركّز اهتمامه كله على لوحى التزلّج ، والمنظار الواقى من الانعكاسات ..

وعندما نهض رجال المنظمة ، واستعادوا سيطرتهم على أنفسهم ، كان هو ينطلق بلوحى التزلّج ، فصرخ (رونالدو) بكل قوته :

- اقتلوه .. إنها أوامر السيدة .. اقتلوه بأى ثمن ..

واندفع الرجال يطاردون (أدهم) على الجليد ، ومدافعهم تنطلق خلفه بكل قوة ..

وكل شراسة ..

وفى نفس اللحظة ، كانت موجة هائلة من الرعب قد سادت المقر السرى كله ، فانطلق الرجال يعدون فى كل مكان ، فى محاولة للفرار ، كل بحياته ، و (سونيا) تهتف بهم :

- توقفوا .. هناك خطة طوارئ .. توقفوا .

ولكن أحداً منهم لم يستمع إليها ..

ولم يتوقّف ..

لقد أدركوا جميعاً أن اللعبة قد انتهت ..

وأن العالم كله سينقضّ عليهم بعد قليل ..

وبلا رحمة ..

وفى حنق هائل ، ألقت (سونيا) نفسها على مقعد القيادة ، صائحة :

- أيها الأغبياء ..

وبكل غضبها وثورتها ، قفزت سبابتها إلى زر تفجير ناقلة البترول المصرية ..

وضغطته ..

ومع ضغطتها ، انبعث صوت فى المكان ، يقول فى غضب :

ـ (سونيا) .. لقد أفسدت كل شيء .

استدارت فى سرعة ولهفة إلى إحدى شاشات المراقبة ، ورأت فوقها تلك الصورة المظللة لمستر (X) ، وهو يواصل ، بنفس الصوت الآلى المعدّل :

ـ كل شيء ضاع بسببك هذه المرة .. كل شيء .

صاحت فى غضب :

ـ بسببى أنا ؟! من منا أصرّ على الإبقاء على حياة (أدهم صبرى) ؟! من منا أصرّ على إحضاره إلى هنا ؟!

قال فى حدة :

ـ كان المفترض أن يكون وجوده فى قبضتنا نقطة قوة لصالحنا .

هتفت :

ـ لقد حذرتك من أن وجوده سيصبح شوكة فى ظهرنا .

قال بصرامة غاضبة :

ـ أنت المسئولة عن هذا .. أنت أطلقت سراحه .

صرخت :

ـ أنا مرة أخرى ؟! ألم تدرك ما سببته لى بعنادك وإصرارك ؟! لقد آمنت بقوتك وقدراتك ، وحسن تنظيمك وتخطيطك للأمور ، ووضعت يدى فى يدك ، منذ عامين كاملين ، ورحت أنفذ خططنا بمنتهى الدقة ، فى نفس الوقت الذى بقيت فيه أنت خلف ستارك الآمن ، دون أن تعرّض نفسك لأدنى مخاطرة ، حتى إن الكل تصوّر أنه لا وجود لك ، وأننى أنا الزعيم الحقيقى للمنظمة ..

قال فى حدة :

ـ لا فائدة من الشكوى الآن .. لقد خسرنا هذه الجولة .

هتفت بكل سخط الدنيا :

ـ هذه الجولة فقط ؟! ألم تدرك ما سيفعله هذا الانفجار ؟! لقد أعلن عن وجودنا ، وحدد موقعنا ، وما هي إلا دقائق ، وستنقضّ علينا مئات المقاتلات الأمريكية ، و ..

قاطعها في صرامة :

ـ فليكن .. دعيهم ينسفون هذا المقر نسفًا .. إنه ليس آخر ما لدينا .. ألم تنتبهي إلى أنني أتحدث إليك مباشرة ، بعد انهيار برج الاتصالات ؟! هذا لأنني أتصل بك مباشرة ، من النفق السفلي ، حيث تنتظرنا وسيلة الفرار إلى المقر الاحتياطي .. هيا .. إنني أنتظرك .

قفزت من مقعدها ، هاتفة :

ـ صدقت .. كل شيء يمكن أن يُعاد بناؤه .

وتلفتت حولها ، قبل أن تضيف في حزم :

ـ كل شيء .

قالتها ، وانطلقت تلحق بمستر (X) ، استعدادًا للانتقال إلى وكر آخر ..

وجولة أخرى ..

* * *

انطلق الجنرال الروسي (يوري بريماكوف) يعدو ، عبر ممرات المقر السري ، وهو يصيح برجاله الخمسة ، الذين لحقوا به :

ـ أسرعوا يا رجال .. أسرعوا .. من أفضل مميزات الغواصات النووية الحديثة ، هو أنه باستطاعة أقل عدد من الرجال إدارتها والتحكم فيها .. وأنتم أفضل رجالي ، ووحدنا يمكننا أن نفرّ من هنا ، ومعنا الغواصة النووية .. لن تجرؤ قوة في العالم على مواجهتنا ، ونحن نمتلك الصاروخ بعيد المدى ، ذا الرأس النووي المحدود ، الذي يمكن أن نطلقه على أية عاصمة في العالم .. حتى (واشنطن) نفسها .

بلغ ورجاله موضع الغواصة النووية في هذه اللحظة ، فهتف بهم :

ـ هيا .. فليتخذ كل منكم موقعه ، و ..

قاطعه صوت صارم بارد جاف :

ـ ليس بهذه السرعة يا (بريماكوف) .

اتسعت عينا الجنرال الروسي ، وهو يحدق في

(سيرجى كوريوف) ، الذى اعتلى برج الغواصة النووية ، حاملاً مدفعه الآلى ، وهو يتابع فى صرامة :

- هذه الغواصة لن يمكنها الذهاب إلى أى مكان ، فقد قضيت الدقائق الماضية فى إفساد أجهزة التحكم والانطلاق فيها .

صرخ (بريماكوف) ، بكل غضب الدنيا :

- اقتلوه .

وارتفعت فوهات أسلحة الرجال الخمسة ..

ولكن رصاصات (سيرجى) كانت الأسبق ..

فمع آخر حروف عباراته ، وقبل حتى أن تكتمل صرخة الجنرال الروسى ، كان رجل المخابرات قد ضغط زناد مدفعه الآلى بالفعل ..

وانطلقت رصاصاته تحصد الرجال الخمسة بلا رحمة أو هوادة ..

ولكن رصاصة واحدة من رصاصاته ، لم تصب الجنرال (بريماكوف) ، الذى تراجع فى رعب ذاهل ، وهو يردد :

- مستحيل ! مستحيل !

قفز (سيرجى) من برج الغواصة ، وهو يهتف :

- ما يحدث الآن يثبت أنه لا يوجد مستحيل أيها الوغد .

انتزع (بريماكوف) مسدسه من حزامه بأقصى سرعة ..

ولكنه لم يطلقه نحو (سيرجى) ، الذى يعدو إليه بكل قوته ..

لقد أداره إلى رأسه ، و ..

ووثب (سيرجى) وثبة مدهشة ، على الرغم من حجمه الضخم ، وأمسك معصم الجنرال ، ولواه فى قوة ، ليجبره على إفلات مسدسه ، وهو يهتف :

- لا .. لن أسمح لك .

ثم هوى على فك (بريماكوف) بلكمة كالقنبلة ، مستطرداً :

- فأنا أريدك حياً .

سقط الجنرال أرضًا في عنف ، فوثب (سيرجي) فوقه ، ولوى ذراعه خلف ظهره ، والجنرال يقاوم في استماتة ، صارخًا :

ـ لا .. لن تلقي القبض عليَّ .. لا ..

أجابه (سيرجي كوربوف) في قسوة باردة :

ـ بل سأفعل أيها الحقير .. هل تتصوَّر أنني أبقي على حياتك ؛ لأنني أرغب في رؤيتك حيًا ؟! كلاَّ أيها الوغد .. كل ما في الأمر هو أنني أريد الاستمتاع بإعادتك إلى (روسيا) ، لأشاهدك وأنت تدفع الثمن غاليًا هناك .. أريد منك أن ترى هزيمتك بنفسك ، وتدرك أن المقابل الوحيد لخيانة الوطن ، هو الذل والعار ثم رفع قبضته ، قائلاً :

ـ وإلى ذلك الحين .

وهوى بها على مؤخرة عنق (بريماكوف) ، مستطردًا :

ـ نم بعمق .

وانتفض جسد الجنرال الروسي في عنف ، ثم هوى رأسه فاقد الوعي ..

وبمنتهى الهدوء والظفر والثقة ، نهض (سيرجي) ، قائلاً :

ـ الآن فقط يمكن أن أقول إن المهمة قد تمت .

وشدَّ قامته في اعتداد ، مضيفًا :

ـ بنجاح .

* * *

انعقد حاجبا الجنرال الفرنسي (شامبليون) في شدة ، وهو يتحرك بساقيه الطويلتين ، في خطوات سريعة واسعة ، عبر ممرات المقر السري ، ويضع خوذة القيادة على رأسه ، مغمغمًا :

ـ أغبياء ! لقد أفسدوا كل شيء .

واصل طريقه بنفس الخطوات الواسعة السريعة ، وهو يرتدي قفازين أبيضين من الجلد ، حتى بلغ مستقر المقاتلة الأمريكية (الشبح ـ ٣) فتسلَّق السلم الملتصق بها ، حتى بلغ كابينتها ، فاستقرَّ داخلها ، وبدأ يضغط أزرارها ، وهو يقول :

- (شامبليون) نفسه لا يخسر أبدًا .. كنت أعلم أن هذا يمكن أن يحدث ، وأن هذه المقاتلة ستكون بانتظارى عندئذ .. كنت أعلم .

بدأت محركات المقاتلة تعمل ، وأغلقت كابينتها آليًا ، فى نفس اللحظة التى ضغط فيها (شامبليون) جهاز تحكم عن بُعد فى يده ، فانزاح الجدار المواجه للمقاتلة ، ليكشف مخرجًا احتياطيًا واسعًا ، فأغلق هو خوذته ، وقال فى حزم :

- من يجرؤ على مواجهة أقوى مقاتلة فى الوجود ؟!

ثم ارتفع أحد حاجبيه فى ثقة ، وهو يضيف :

- وخاصة عندما أقودها أنا .

ضغط الأزرار المتبقية ، واستقر على مقعده جيدًا ، وربط حزامه فى إحكام ، ثم جذب مقود الطائرة .. واندفع بها إلى الأمام ..

وارتفع بها ، بوساطة محركاتها الثلاثة الرأسية ، التى تتيح لها الارتفاع على نحو شبه عمودى(*) .

(*) كل المقاتلات الحديثة مزودة بمثل هذه المحركات الرأسية .

وبكل قوتها ، انطلقت (الشبح - ٣) خارج المقر السرى ، والجنرال (شامبليون) يهتف :

- فليذهب الجميع إلى الجحيم .. وليحيا (شامبليون) العظيم .

ثم أطلق ضحكة ظافرة عالية ، و ..

« من السرب التاسع إلى (الشبح - ٣) .. استسلم فورًا ، أو نطلق النار بلا رحمة .. »

انتفض جسده فى عنف ، وشاهد بغتة مقاتلات السرب التاسع الأمريكى ، وهى تحيط به ، فانعقد حاجباه فى شدة ، وهتف فى غضب :

- هنا الجنرال (شامبليون) ، قائد القوات الجوية الفرنسية السابق ، وأعظم طيار عرفته السماء ، فى القرن العشرين كله .. إننى أرفض إنذاركم ، وأوجه لكم أنا إنذارًا واحدًا ، لن أكرره أبدًا .. ابتعدوا كلكم عن طريقى ، وإلا فسأطلق الصواريخ ذات الرءوس النووية المحدودة نحوكم ، وأنسف المنطقة بأكملها .. هل تفهمون ..

مضت لحظة من الصمت ، قبل أن يأتيه صوت قائد السرب التاسع الأمريكى ، وهو يقول فى هدوء :

ـ لقد تلقينا إنذارك يا جنرال ، ونحن نكرّر إنذارنا ، ونبلغك أن (الشبح ـ ٣) مزوّدة بجهاز خاص ، يمكن أن يتلقى إشارة من أحد الأقمار الصناعية ، لإيقاف عمل أسلحته كلها ، ولقد تم إطلاق تلك الإشارة الآن ، من القيادة الرئيسية فى (ناسا) .

اتسعت عينا (شامبليون) لحظة ، قبل أن يهتف فى غضب :

ـ أنتم كاذبون .. لو أن لديكم مثل هذه الإشارة ، لاستخدمتموها من قبل .

أجابه قائد السرب التاسع فى حزم :

ـ فى السابق لم يكن بإمكاننا تحديد موقع الطائرة ، حتى يتم توجيه الإشارة إليها ، أما الآن فالأمر يختلف .

وصمت لحظة ، ثم تابع فى صرامة :

ـ والآن نحن نكرّر إنذارنا للمرة الأخيرة .. الاستسلام ، أو إسقاط (الشبح ـ ٣) فوراً .

صرخ (شامبليون) ، وهو يجذب ذراع إطلاق صواريخه :

ـ لن أستسلم .. أنتم كاذبون .. كاذبون .

قالها ، ودار بالطائرة دورة كاملة ، ثم ضغط زر إطلاق الصواريخ ، ذات الرءوس النووية المحدودة ، و ....

ولكن شيئاً لم يحدث ..

لم ينطلق صاروخ واحد ..

كل ما حدث هو أن أضىء مصباح فى التابلوه ، يحمل عبارة مخيفة ..

« تم إيقاف عمل كل الأسلحة .. »

واتسعت عينا (شامبليون) ، وهو يهتف :

ـ لا .. مستحيل !

ومع هتافه ، التقطت أذناه صوت قائد السرب التاسع ، وهو يهتف بكل حزم وصرامة :

ـ هجوم شامل .. الآن .

واستدارت مقاتلات السرب التاسع كلها ، لتواجه (الشبح ـ ٣) ..

وصرخ (شامبليون) بكل انفعالاته :

ـ لا .. لن يمكنكم أن تفعلوا هذا .

وأدار مقود الطائرة ، وحاول أن يندفع بها هاربًا ..

ولكن مقاتلات السرب التاسع انقضت في شراسة ..

وانطلقت صواريخها ..

وكان الانفجار رهيبًا ..

رهيبًا بحق ..

* * *

تألقت عينا مدير المخابرات العامة المصرية ، وهو يعيد سماعة الهاتف إلى موضعها ، ويلتفت إلى رئيس الجمهورية ، هاتفًا :

ـ (أدهم) فعلها يا سيادة الرئيس .

هتف الرئيس بدوره :

ـ حقًا ؟!

أجابه المدير في حماس :

ـ الروس أبلغونا أنهم قد تلقوا منذ لحظات اتصالاً خاصًا ، من أحد رجال مخابراتهم ، خارج المقر السري لمنظمة (إكس) ، ولقد أخبرهم أن (أدهم صبري) قد نجح في نسف برج البث الرئيسي ، ومنع اتصال المنظمة بالقمر الصناعي الأمريكي تمامًا .

قال الرئيس :

ـ إذن فقد نجا السد العالي .

هتف مدير المخابرات :

ـ بل نجا العالم كله يا سيادة الرئيس .

سأله الرئيس :

ـ إذن فقد سقطت تلك المنظمة .

أجابه مدير المخابرات ، دون أن يحاول السيطرة على انفعاله :

ـ الانفجار سيجذب الأمريكيين حتمًا إلى المكان ، خاصة وأنهم يجوبون سماء (الاسكا) بأسرابهم المقاتلة بالفعل ، وما دام وكر المنظمة قد انكشف ،

فهذا يعنى أنها قد خسرت تسعين فى المائة من قوتها ، وأصبحت مجرد تنظيم محدود ، يمكن مهاجمته ، وسحقه سحقاً .

تنهد الرئيس فى حرارة ، متمتماً :

ـ حمداً لله .. حمداً لله .

غمغم مدير المخابرات :

ـ لكل شيء نهاية ، مهما بلغت قوته .. سبحان الحى الذى لا يموت .

اعتدل الرئيس ، يسأله بغتة ، فى اهتمام بالغ :

ـ وماذا عن (أدهم) ؟!

هزّ مدير المخابرات رأسه ، قائلاً :

ـ ضابط المخابرات الروسى يبحث عنه أيضاً ، ولكنه يؤكد أنه لم يلق مصرعه ، مع انفجار برج البث .

سأله الرئيس :

ـ أين هو إذن ؟!

صمت مدير المخابرات بضع لحظات ، قبل أن يقول بصوت خافت :

ـ الله (سبحانه وتعالى) وحده يعلم يا سيادة الرئيس .

انعقد حاجبا الرئيس ، وهو يقول :

ـ لابد أن نبحث عنه ، مهما كان الثمن .. لن نتخلى عن بطلنا أبداً ..

وعاد يعتدل فى مقعده ، مستطرداً فى صرامة وحزم :

ـ هل تفهم يا مدير المخابرات ؟! لن نتخلى عن بطلنا أبداً .

أجابه المدير فى حزم مماثل :

ـ بكل تأكيد يا سيادة الرئيس .. بكل تأكيد .

قالها ، وعقله يطرح سؤالاً محدوداً ملحاً ..

ترى أين (أدهم) الآن ؟!

أين ؟!

* * *

انطلقت رصاصات رجال المنظمة خلف (أدهم) ، فى غزارة بلا حدود ، وهتف بهم (رونالدو) ، وهو يطلق رصاصاته بدوره :

- لا تسمحوا له بالفرار .. السيدة أمرت أن نقتله ، مهما كان الثمن ، وأوامر السيدة قانون ، لا تراجع عنه أبدًا .

لم يكن الرجال بحاجة إلى هتافه هذا ، فالغضب الذى يعصف بأنفسهم ، إزاء الرجل الذى نسف كل أحلامهم وطموحاتهم ، كان يدفعهم إلى بذل جهد يفوق طاقتهم ، فى سبيل القضاء عليه ..

ولكن (أدهم) كان ماهرًا بحق ، فى الانزلاق على الجليد ..

الرحلات التى اصطحبه فيها والده ، إلى جبال (سويسرا) ، منذ بلغ الثانية عشرة من عمره ، والتدريبات التى تلقاها على أيدى مدربين محترفين ، كان لها أبلغ الأثر فيما يتمتع به من مهارة مدهشة ، فى هذا المضمار ..

لذا ، فقد راح يدور حول الأشجار ، ويثب فوق الصخور ، على نحو أربك الجميع ، وأفقدهم توازنهم ، وأنقذه من رصاصاتهم الغزيرة .

والعجيب أنه قد فعل هذا ، بكل آلامه وإصاباته ..

وبالدماء التى تنزف من جراحه فى غزارة ..

مدهش هو هذا الرجل ..

صحيح أنه مجرد بشر ، إلا أنه يمتلك إرادة من فولاذ ، وعزيمة من صلب ، تتيحان له أن يتحدى كل الآلام ، التى تكفى لتحطيم إرادة أقوى الرجال ..

وهذا ما يذهل خصومه ..

ويحنقهم ..

ويفجر فيهم غضبًا بلا حدود ..

لذا ، فقد هتف (رونالدو) فى رجاله :

- الرصاصات لن تجدى .. استخدموا الصواريخ .

جذب الرجال جزءًا فى مدافعهم ، وصوبوا صواريخهم نحو (أدهم) ، الذى ينزلق على الجليد فى سرعة مدهشة ..

ثم ضغطوا الأزندة الإضافية ..

وانطلقت الصواريخ ..

ودوت الانفجارات حول (أدهم) ..

وتطايرت الثلوج فى عنف ..

وسقطت شجرة كبيرة ..

واعترضت طريقه ..

ولكن (أدهم) دفع مغراس الثلج فى الأرض بقوة ، ودفع جسده إلى أعلى ..

وفى مشهد مبهر ، تجاوز الشجرة بقفزة عالية مدهشة ، قبل أن يهبط مرة أخرى على الجليد ، ويواصل اندفاعه ..

واتسعت عيون الرجال ، وهتف (رونالدو) فى ذهول :

ـ مستحيل !

ومع هتافه ، بلغ الرجال موضع الشجرة الكبيرة ، التى تعترض الطريق ..

وحاول معظمهم تقليد ما فعله (أدهم) ، فدفعوا مغاريس الثلج فى الأرض وقفزوا ..

وكانت كارثة ..

(رونالدو) وأربعة من الآخرين فقط ، نجحوا فى تجاوز الموقف ..

أما الباقون ، فقد ارتطم بعضهم بالشجرة فى عنف ..

وطار الآخرون فى الهواء ليسقطوا على الثلوج ..

وتحطمت مزاليج البعض ..

وانكسرت مغاريس البعض الآخر ..

وهتف (رونالدو) :

ـ لا وقت للتوقف .. واصلوا المطاردة .. أطلقوا الصواريخ الإضافية .

ومرة أخرى ، انطلقت الصواريخ ..

خمسة صواريخ ، شقت طريقها وسط الثلوج ..

وانفجرت فى عنف ..

وفى هذه المرة ، كانت الانفجارات قريبة من (أدهم) ..

قريبة للغاية ..

ومع موجة التضاغط الحادثة ، وجد نفسه يطير فى الهواء ، ثم يسقط مرتطمًا بالثلوج ، ومنزلقًا فوقها فى عنف ..

وبكل الظفر ، هتف (رونالدو) :

- لقد سقط .. أسرعوا .. سنحاصره معًا

نهض (أدهم) فى سرعة ، وغمغم وهو يلتقط منظاريه :

- الموقف يتأزم أكثر وأكثر يا (أدهم) ، وأنت تجهل إلى أين تنطلق .

دوت الرصاصات من خلفه ، فهتف يندفع مرة أخرى على الجليد :

- ولكن ليس أمامك سوى أن تنطلق .

لا أحد يدرى كيف يمكنه أن يفعل هذا !!

كيف يمكنه أن يحتمل آلام وإصابات ، ينوء بها أشجع وأقوى الرجال ، ويواصل انطلاقه بكل هذه المهارة ؟!

كيف ؟! ..

ولكنه فعلها ..



ومع موجة التضاغط الحادثة ، وجد نفسه يطير فى الهواء ، ثم يسقط مرتطمًا بالثلوج ، ومنزلقًا فوقها فى عنف ..

(رونالدو) ورجاله أصابهم ذهول مطبق ، وهم يواصلون مطاردتهم له ، وهتف الأول :

ـ مستحيل ! إنه يتجاوز كل الحدود .

هتف به أحد رجاله :

ـ ولكن من الواضح أنه يجهل هدفه .

سأله (رونالدو) :

ـ ماذا تعنى ؟!

أشار الرجل بمدفعه ، قائلاً :

ـ ألم تنتبه إلى هذا ؟! إنه يتجه نحوها .

اتسعت عينا (رونالدو) ، قبل أن يهتف فى ظفر :

ـ آه .. هذا صحيح .

ثم تألقت عيناه فى شدة ، وهو يضيف :

ـ هذا يحسم الأمر كله .

لم يسمع (أدهم) حديثهما ، ولكن شيئاً ما فى المكان ، جعله يشعر أن الخطر ينتظره ، فى نهاية الطريق ، الذى يندفع فيه ..

شىء فى طبيعة المكان ..

أو صمته ..

أو السماء التى تحتل الأفق كله ..

أو هى غريزة رجل المخابرات المحنك ..

غريزة الشعور بالخطر ..

تلك الغريزة التى تنمو مع الزمن والخبرة ، وتلك الغريزة بالتحديد ، هى التى جعلته يخفف من سرعته ، ويدير مزلاجيه بغتة ، و ..

ويتوقف ..

على مسافة متر واحد من الهاوية ..

هاوية سحيقة ، كاد يسقط فيها ، لو لم يستجب لنداء غريزة الخطر هذه ..

ولكن توقفه لم يكن يعنى أن الخطر قد زال ..

فـ (رونالدو) ورجاله الأربعة كانوا يواصلون اندفاعهم نحوه ..

وأسلحتهم كلها مصوبة إليه ..

وقد نزف الكثير من دمائه ..

وسيطر الدوار على رأسه بشدة ، حتى إنه يبذل جهداً يفوق طاقة البشر ، فقط ليظل محتفظاً بوعيه ..

ولقد استدار (أدهم) يواجههم ..

ورأى (رونالدو) ورجاله يتوقفون ، على مسافة عشرة أمتار منه ، ويرفعون فوهات مدافعهم إليه ، و (رونالدو) يقول فى صرامة :

- إنها النهاية أيها المصرى .. لقد نسفت كل طموحاتنا وأحلامنا ، وحانت لحظة الانتقام .

وبإشارة من يده ، ارتفعت فوهات مدافع رجاله نحو (أدهم) ، ثم هتف بكل صرامته وشراسته :

- أطلقوا النار .

ودوت الرصاصات مرة أخرى ..

وسالت الدماء على الجليد ..

جليد (ألاسكا) ..

* * *

فجأة برزت تلك الهليوكوبتر ، من قلب الهاوية ..

وفجأة ، أيضاً ، انطلقت منها موجة من الرصاصات ، بمنتهى العنف ..

والغزارة ..

وقبل أن يضغط أحد رجال (رونالدو) زناد مدفعه ، كانت تلك الرصاصات تحصدهم مع قائدهم حصداً ..

دون أدنى هوادة ..

أو رحمة ..

وسقط (رونالدو) ورجاله صرعى ..

وسالت دماؤهم فى غزارة ، على جليد (ألاسكا) ..

ومن الهليوكوبتر ، اندفع صوت يهتف ، بكل لهفة الدنيا :

- (أدهم) .. حمداً لله .. حمداً لله .

وقبل حتى أن تستقر الهليوكوبتر على الجليد كانت (منى) تثب منها ، وتندفع نحوه بكل لهفتها وسعادتها ، هاتفة :

- لقد وصلنا فى الوقت المناسب .. حمداً لله حمداً لله .

ألقت نفسها بين ذراعيه ، فاحتضنها في حنان دافق ، وهو يغمغم :

ـ لا يمكنك أن تتصوري كيف أشعر بالسعادة لرؤيتك يا عزيزتي .

غادرت دونا (كارولينا) الهليوكوبتر ، في معطف بالغ الأناقة ، وهي تقول بابتسامة واسعة :

ـ وماذا عني ؟!

ابتسم (أدهم) في ضعف ، وهو يغمغم :

ـ إنها ليلة المفاجآت ولا شك .

تراجعت (منى) ، هاتفة في انزعاج بالغ :

ـ رباه ! (أدهم) .. أنت مصاب .. مصاب بشدة .

حاول أن يبتسم ، وهو يغمغم :

ـ إنها مجرد دماء .

ثم تنهد في عمق ، مستطردًا :

ـ المهم أن (مصر) بخير .

قالها ، ودارت الدنيا كلها أمام عينيه ، وشعر بالظلام يحيط به من كل جانب ، و ...

وهوى فاقد الوعي ..

بين ذراعي (منى) الملتاعة ..

ووسط الجليد ..

الجليد الدامي .

* * *

٩ - الختام..

فجأة، استعاد (أدهم) وعيه ..

لم يدر كم بقى فاقد الوعى، وسط ثلوج (ألاسكا)، ولكنه استعاد وعيه بغتة، ليجد نفسه داخل حجرة واسعة نظيفة دافئة، يغمرها ضوء النهار، ويبعث فيها شعوراً افتقده كثيراً، بالهدوء والأمان والراحة ..

وما إن فتح عينيه، حتى تفجَّرت الدموع من عينى (منى) فى غزارة، وهى تحتضن يده، هاتفة :

- (أدهم) .. حمداً لله .. حمداً لله .

تنهَّد وهو يبتسم، قائلاً :

- ما أجمل أن يرى المرء وجهك، عندما يفتح عينيه يا عزيزتى .

انبعث من ركن الحجرة صوت يقول :

- هذا يجعلنى أشعر بالغيرة .

أدار عينيه إلى دونا (كارولينا)، قائلاً :

- آه .. دونا .. كم تسعدنى رؤيتك أيضاً .. إننى أدين لك بحياتى هذه المرة .

لوَّحت بيدها، قائلة :

- إننى أرد دينى فحسب، فلولاك ما أصبحت زعيمة المنظمة هنا أيضاً(*).

سألها فى اهتمام :

- أين نحن بالضبط ؟!

هزَّت كتفيها، قائلة بابتسامة كبيرة :

- عندى .

ابتسمت (منى)، قائلة :

- أنت داخل الجناح الملكى، فى مستشفى دونا (كارولينا) الخاص .

رفع أحد حاجبيه، قائلاً :

- الجناح الملكى دفعة واحدة ؟!

أجابته (كارولينا) مبتسمة :

(*) راجع قصة (نهر الدم) .. المغامرة رقم ١٠٢

- هذا أمر طبيعي ، بالنسبة للسيد (أميجو صانتو) ، صاحب الاستثمارات الضخمة .

منحها (أدهم) ابتسامة امتنان ، ثم استدار إلى (منى) ، يسألها في اهتمام :

- ماذا حدث في (ألاسكا) ؟! هل ألقوا القبض على الجميع ؟!

تنهدت ، قائلة :

- الجنرال (بريماكوف) تم إلقاء القبض عليه حيًا ، وتم تسليمه إلى الروس ، ليلقى جزاءه العادل هناك .

هزّ (أدهم) رأسه ، متمتمًا :

- لست أتمنى أن أكون في موضعه أبدًا .

تابعت :

- أما (شامبليون) ، فقد لقي مصرعه ، في مواجهة جوية ، و ..

غمغم (أدهم) في أسى :

- إنه ليس الوحيد ، الذي لقي مصرعه يومئذ .

سألته (منى) :

- ماذا تقصد بهذا ؟!

تنهّد في مرارة ، قائلاً :

- طاقم ناقلة البترول المصرية أيضًا لقي مصرعه .. (سونيا) اللعينة أخبرتني أنها ستقتلهم جميعًا بلا رحمة ، وستنسف الناقلة ، بكل ما عليها ومن عليها ، لو أنني نسفت برج الاتصال ..

تبادلت (منى) نظرة مع (كارولينا) ، وابتسمت هذه الأخيرة في إعجاب ، في حين قالت الأولى :

- قرارك هذا لا يتخذه سوى قائد مخلص يا (أدهم) ، فليس من السهل أن يتخذ شخص عادي قرارًا بإنقاذ دولة كاملة ، بما يستلزمه هذا من التضحية بعدة أشخاص .

هزّ رأسه ، مغمغمًا :

- إنهم بشر ، لهم أسر وعائلات و ..

قاطعته (كارولينا) مبتسمة :

- اطمئن .. كلهم على قيد الحياة ..

هتف فى لهفة :

ـ حقًا ؟!

أجابته (منى) فى حنان :

ـ نعم يا حبيبى .. عندما نسفت البرج ، نسفت معه الوسيلة الوحيدة ، لبث إشارة التفجير ، ونقلها إلى ناقلة البترول .

سألها فى فرحة غامرة :

ـ أتعنين أن ..

قاطعته بكل حنان :

ـ نعم يا (أدهم) .. كلهم بخير حال ، ولقد عثرنا عليهم جميعًا .

غمغم فى ارتياح :

ـ حمدًا لله .. حمدًا لله .

ثم سألها فى اهتمام :

ـ وماذا عن (سونيا) ؟! هل ألقوا القبض عليها ؟!

هزّت رأسها نفيًا فى أسف ، وقالت :

ـ كلاّ .. لقد اختفت تمامًا .. الأمريكيون عثروا على نفق سرى ، أسفل المقر ، يقود إلى مطار خاص ، على بعد ثلاثمائة كيلومتر ، والتحريات تؤكّد أن طائرة قد أقلعت من ذلك المطار ، إلى جهة مجهولة ، لم يمكن تحديدها قط .

عض شفتيه ، مغمغمًا :

ـ لقد نجت الأفعى مرة أخرى .

تبادلت (منى) نظرة مع دونا ، قبل أن تقول :

ـ المشكلة أنها لم تختف وحدها .

تطلّع إليها بتساؤل قلق ، فتابعت فى خفوت :

ـ لقد حملت ابنها معها ، إلى مكان مجهول .. أعنى ابنكما يا (أدهم) .

انعقد حاجباه فى شدّة ، وأطلّت من عينيه نظرة ساخطة ، تحمل حزن الدنيا كله ، وهو يتمتم :

ـ يا للأفعى !

اعتدلت (كارولينا) فى مقعدها ، وقالت فى حزم :

- اطمئن يا (أدهم) .. سأجند رجالى كلهم للبحث عن ابنك ، و ...

قاطعها فى صرامة :

- كلا يا دونا .. إنه ابنى ، وأنا وحدى سأبحث عنه .. وسأستعيده ، حتى ولو كان هذا آخر ما أفعله ، فى حياتى كلها .

لم يكد يتم عبارته ، حتى سمع طرقات هادئة ، على باب حجرته ، فاعتدلت (منى) ، قائلة :

- تفضل .

انفتح الباب فى هدوء ، وبرز من خلفه وجه مألوف ، يقول بابتسامة كبيرة :

- حمداً لله على سلامتك يا بطل .

هتف (أدهم) بدهشة حقيقية :

- سيادة المدير ؟!

دلف مدير المخابرات العامة المصرية إلى حجرة المستشفى فى (نيويورك) ، وهو يقول :

- كما أنت يا (أدهم) .. الأطباء أكدوا أنك تحتاج إلى راحة تامة لشهر كامل على الأقل .

صافحه (أدهم) فى حرارة ، قائلاً فى امتنان :

- سيدى .. لست أدرى ماذا أقول ، و ..

قاطعه المدير مبتسماً :

- إننى هنا فى مهمة رسمية يا بطل .. سيادة رئيس الجمهورية يبلغك تحياته ، وسيتصل بك شخصياً ، عندما أخبره أنك قد استعدت وعيك ، ولقد كان يتمنى أن يتم علاجك فى مستشفى مصرى ، لولا أن الأطباء يؤكدون خطورة نقلك عبر المحيط ، فى حالتك هذه .

غمغمت (كارولينا) مبتسمة :

- لى الفخر بأن مستشفاى يضم ثلاثة من أبطال مخابراتكم (أدهم) و(جيهان) و(نادية) ، وأعدكم أن يجدوا كل عناية ممكنة ، حتى يكتب لهم الشفاء التام .

قال المدير :

- نحن واثقون من هذا يا سيدة (كارولينا) .

سأل (أدهم) (منى) فى اهتمام قلق :

ـ ماذا تفعل (جيهان) و (نادية) هنا ؟!

أجابته مبتسمة :

ـ (بترو) أيضًا هنا ، والجميع بخير .. اطمئن .

ابتسم المدير بدوره ، وقال :

ـ سيادة رئيس الجمهورية اقترح منحك ترقية استثنائية ، وهذا سيجعلك أصغر من يحمل رتبة اللواء ، فى (مصر) كلها ، ولكن معرفتى الجيدة لشخصيتك ، جعلتنى أخبره أن هذا قد لا يروق لك .

غمغم (أدهم) :

ـ أحسنت يا سيدى .. لقد حصلت على ترقيتين استثنائيتين بالفعل ، ولست أحب الانفصال عن زملاء دفعتى إلى هذا الحد .

قال المدير :

ـ بالضبط .. ولهذا فقد تم منحك نوط الشجاعة ، ووسام الجمهورية من الطبقة الأولى ، والرئيس يعرض عليك منصب مستشاره الأمنى الأول ، و ...

قاطعه (أدهم) :

ـ معذرة لمقاطعتك يا سيدى ، ولكننى أرجو أن تبلغ سيادة الرئيس اعتذارى عن قبول المنصب .

تفجَّرت الدهشة فى وجوه الجميع ، وهتفت (منى) :

ـ (أدهم) .. ماذا تقول ؟!

أجاب فى حزم :

ـ أعلم أنه من غير اللائق أن أرفض منصبًا كهذا ، وربما من الحكمة ألا أفعل أيضًا ، ولكن الواقع أن هذا ليس المنصب الوحيد ، الذى أعتذر عنه اليوم .

سأله المدير فى حذر :

ـ ماذا هناك أيضًا ؟!

صمت (أدهم) لحظة ، قبل أن يقول بحزم أكبر :

ـ إننى أعتذر عن عملى فى المخابرات العامة أيضًا .

فى هذه المرة لم تتفجَّر الدهشة فى وجوههم ، بل الذهول ..

(منى) لم تنطق بحرف واحد ، وهى تحدق فيه بشدة ، ودونا (كارولينا) انعقد حاجباها ، وكأنها لاتصدق ما سمعته ، أما مدير المخابرات ، فقد انخفض صوته ، وهو يقول :

ـ ولكن لماذا ؟! لماذا يا (أدهم) ؟!

تنهّد (أدهم) فى حرارة ملتهبة ، وأجاب :

ـ لم يعد بوسعى الاستمرار يا سيدى .. كل ذرة فى كيانى تشعر بإرهاق بلا حدود .

وصمت لحظة ، ثم أضاف بكل مرارة الدنيا :

ـ كما أننى أحتاج إلى التفرّغ التام ، لأبحث عن ابنى .. ابنى الوحيد .

قالها ، وساد المكان صمت مطبق ، والكل يتطلّع إليه ، قبل أن يشدّ مدير المخابرات العامة المصرية قامته ، ويقول فى حزم :

ـ أنت على حق يا (أدهم) .. أنت تحتاج إلى التفرّغ التام ، للبحث عن ابنك الوحيد .. لا أحد يمكنه منعك من هذا .

هتفت (منى) :

ـ سيدى المدير .. ماذا تقول ؟!

أشار إليها بالصمت ، وهو يكمل بنفس الحزم :

ـ ولكننا نرفض انفصالك عنا .

غمغم (أدهم) :

ـ ولكن ..

تابع المدير ، وكأنه لم يسمعه :

ـ سنمنحك التفرّغ الذى تحتاج إليه ، دون أن تترك منصبك وعملك يا (أدهم) .. فور عودتنا إلى (القاهرة) ، سأوافق على منحك إجازة بمرتب كامل ، لمدة عام قابل للتجديد ، وهذه أقل مكافأة ، يمكن أن نمنحها لبطل مثلك ، قاتل كثيراً وطويلاً ، من أجل (مصر) .

ثم مدّ يده يصافحه فى حرارة ، متابعاً بابتسامة كبيرة :

- هيا .. ابحث عن ابنك ، وليعاونك الله (سبحانه وتعالى) فى العثور عليه ، ولكن عد إلينا فى النهاية .

غمغم (أدهم) :

- بإذن الله (سبحانه وتعالى) يا سيدى .. بإذن الله .

غادر المدير الحجرة ، وعادت (منى) تحتضن يده مرة أخرى ، بكل حب وحنان الدنيا ، وهى تتطلع إليه ، قائلة :

- حمداً لله على سلامتك .

منحها ابتسامة هادئة ، وعقله شارد تماماً عن كل ما حوله ..

ومن حوله ..

فهو لم يكن مبالغاً ، عندما قال ما قاله لمدير المخابرات ..

إنه يشعر حقاً بالإرهاق .

كل ذرة فى كيانه تشعر فعلاً بالإرهاق ..

ربما لأن عملياته الأخيرة كانت أعنف مما ينبغى ..

أو لأن إصاباته فيها كانت أكثر مما يمكن احتماله ..

ولكن المهم أنه يشعر بالفعل بإرهاق شديد ..

ولأول مرة فى حياته ، يمتلئ كيانه برغبة عارمة فى الراحة ..

وفى حياة هادئة مستقرة ..

الحياة التى يحلم بها أى شخص عادى ..

وفى بطء ، أدار عينيه ، وتطلع إلى السماء الصافية ، عبر زجاج نافذة الحجرة ، وعقله يطرح عليه عدة أسئلة ..

تُرى هل سيعثر على ابنه يوماً ؟!

وهل سيمكنه العودة مستقبلاً إلى عالم المخابرات ؟!

هل ؟!

* * *

[تمت بحمد الله]

رقم الإيداع : ٣٦١٩